2

مصادر القوة الناعمة الأميركية

لدى الولايات المتحدة مصادر كثيرة يمكن أن تقدم لها قوة ناعمة محتملة لاسيما عندما ينظر المرء في الطرق التي تسهم بها البراعة الاقتصادية الفائقة ليس بالثروة فقط بل وفي السمعة والجاذبية أيضاً. فأميركا ليست صاحبة اقتصاد في العالم فحسب، ولكن ما يقرب من نصف أكبر خمس مئة شركة في العالم هي شركات أميركية، أي أكثر بخمسة أضعاف ما لدى اليابان، التي تحتل بعدها المرتبة التالية[1]. كما أن اثنتين وستين بالمئة من أهم العلامات التجارية العالمية أميركية، وكذلك ثمانٍ من أكبر عشر مدارس للأعمال التجارية[2].

وتظهر المؤشرات الاجتماعية نمطاً مماثلاً. فكّر فيما يلي:

- تجتذب الولايات المتحدة ما يقرب من ستة إضعاف المهاجرين الأجانب أكثر من ألمانيا التي تليها في ذلك[3].
- الولايات المتحدة هي أول وأكبر مصدّر للأفلام والبرامج التلفزيونية في العالم، رغم أن "بوليوود" الهندية تنتج أفلاماً أكثر منها في كل عام[4].
- من بين الـ 1.6 مليون طالب مسجلين في جامعات خارج بلدانهم، 28٪ موجودون في الولايات المتحدة، بالمقارنة مع 14٪ يدرسون في بريطانيا[5].
- أكثر من 86 ألف باحث أجنبي كانوا مقيمين في مؤسسات تعليمية أميركية في عام [6] 2002.

وهناك مقاييس أخرى تظهر أن الولايات المتحدة...

- ... تنشر كتباً أكثر من أي بلد آخر.
- ... تبيع مؤلفات موسيقية ضعف ما تبيعه اليابان التي تليها مرتبة في هذا المجال.
- ... لديها مضيفون على مواقع الإنترنت يزيدون على ثلاثة عشر ضعف المضيفين في اليابان.
- ... تحتل المرتبة الأولى في الفوز بجوائز نوبل في الفيزياء، والكيمياء، والاقتصاد.
- تحتل مرتبة ثانية لصيقة بعد فرنسا في عدد جوائز نوبل في الأدب.
- تنشر ما يقرب من أربعة أضعاف المقالات العالمية والدولية التي تنتجها اليابان، المنافسة التالية لها في هذا المجال[7].

وبالطبع فإن رتبة الولايات المتحدة ليست في القمة في كل مقاييس الجاذبية المحتملة. فحسب مؤشر نوعية الحياة الصادر في عام 2003 عن برنامج الأمم المتحدة الانمائي (الذي لا يقتصر على الدخل فحسب، بل يأخذ في الحسبان أيضاً التعليم، الرعاية الصحية، وطول العمر المتوقع) فإن مرتبة كل من النرويج، وآيسلندا، والسويد، وأستراليا، وهولندا، وبلجيكا تسبق مرتبة الولايات المتحدة بين أفضل البلدان للعيش[8]. وتتفوق اليابان على الولايات المتحدة في عدد براءات الاختراع الممنوحة للسكان في النسبة المئوية من الناتج القومي الإجمالي التي تصرفها على البحوث والتنمية وتتفوق عليها كلٌّ من بريطانيا وفرنسا كملاذَيْنِ لملتمسي اللجوء كما أن فرنسا وإسبانيا تجتذبان عدداً أكبر مما تجتذبه الولايات المتحدة من السياح (رغم أن أميركا تزيد عليهما في دخلها من السياحة). وعندما يصل الأمر إلى "المؤشرات المنفرة غير الجذابة"، فإن مرتبة الولايات المتحدة قريبة من

قاع القائمة في مستوى معونات التنمية التي تمنحها، وعند قمتها في النسبة المئوية من سكانها المحبوسين والمحتجزين[9].

بل إن ما هو أهم بالنسبة للقوة من بعض المراتب العالية في التنفير هي - كما رأينا في الفصل السابق حقيقة كون موارد القوة المحتملة لا تترجم دائماً إلى قوة متحققة، بمعنى التوصل إلى النتائج المرغوبة فلكي يحدث ذلك، يتعين أن يكون المقياس الموضوعي للقوة الناعمة المحتملة جذاباً في عيون جمهور محدد، ويجب أن تؤثر تلك الجاذبية على محصلات السياسة. وفي هذا الفصل سننظر إلى أمثلة عديدة من الكيفية التي أثرت بها مثل هذه الجاذبية على محصلات مهمة للسياسة. ولكن دعونا ننظر أولاً إلى بعض أسباب التغير في جاذبية الولايات المتحدة، وكيف يمكن لذلك أن يؤثر على محصلات السياسة.

صعود وسقوط نزعة معاداة أميركا

هبطت جاذبية الولايات المتحدة هبوطاً حاداً في عام 2003 على الرغم من وفرة مواردها بشكل مثير للإعجاب. فعندما بدأ العد التنازلي للحرب على العراق، أظهرت استطلاعات الرأي أن الولايات المتحدة قد خسرت ما معدله ثلاثون نقطة تأييد في معظم البلدان الأوروبية. بل كانت مستويات التأييد أقل حتى من ذلك في البلدان الإسلامية. وبعد الحرب كانت هناك صور غير مؤاتية لأميركا لدى أغلبيات الناس فيما يقرب من ثلثي تسعة عشر بلداً تم مسحها. وقال معظم أصحاب الآراء السلبية إنهم يلومون سياسات إدارة بوش، وليس أميركا عموماً[10].

إن معارضة السياسات الأميركية لا تشبه المعارضة العامة للولايات المتحدة. فردود الفعل على السياسات أكثر تقلباً من ردود الفعل الكامنة

على الثقافة والقيم. فصورة بلدٍ مّا أو جاذبيته تتكون من مواقف الأجانب إزاءه على مستويات وأنماط شتى، لا تتشكل ردود الفعل على السياسة الأميركية سوى واحد منها.

والشكل 2-1 القائم على أساس نتائج استطلاع للرأي أجري في 43 بلداً في عام 2002 يشير إلى مدى الإعجاب الذي حظيت به الولايات المتحدة بسبب تقدمها العلمي والتكنولوجي، وكذلك بسبب موسيقاها، وأفلامها، وتلفزيونها. وفي الوقت نفسه قالت الأغلبيات في 34 بلداً من تلك الثلاثة والأربعين إنها لا تحب التأثير الأميركي في بلادها (11).

ولم تكن الحرب على العراق هي أول مرة تؤدي فيها سياسة أمنية مثيرة للجدل والخلافات إلى تناقص جاذبية الصورة الأميركية في البلدان الأخرى. فقد كانت هناك أربع فترات سابقة تناقصت فيها الجاذبية الأميركية في أوروبا: بعد أزمة قناة السويس في عام 1956؛ وأثناء حركة " تحريم القنبلة "[النووية] في أواخر خمسينيات القرن العشرين وأوائل ستينياته (ولو أن هذه كانت بالدرجة الأولى في بريطانيا وفرنسا، وليس في ألمانيا وإيطاليا)؛ وفي أثناء فترة الحرب الفيتنامية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات؛ وفي أثناء نشر الأسلحة النووية المتوسطة المدى في ألمانيا في مطلع الثمانينيات.

وقد لَقِيَت الحربُ الفيتنامية معارضةً واسعةً في بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا. ورغم حدوث هبوط في الشعبية الأميركية الشاملة من عام 1965 إلى عام 1972 (بحوالي 23 نقطة في بريطانيا و 32 في ألمانيا، و19 في إيطاليا، و7 في فرنسا) فإن الأغلبيات فيها جميعاً باستثناء فرنسا ظلت تعبر عن آراء إيجابية في الولايات المتحدة

طيلة عمليات الحرب الكبرى، وحتى محادثات باريس لعام 1972 [12]. ومع ذلك فإن الانزلاق النازل في الشعبية ترك بالفعل آثاراً على قدرة الحكومة الأميركية على تحقيق النتائج المرغوبة لسياستها. فعرقل فقدانُ الجاذبية محاولات الرئيس ليندون جونسون للحصول على دعم البلدان الأخرى للحرب في فيتنام. وقد أضرّ هبوطُ القوة الناعمة بالسياسات الأخرى كذلك. ففي فرنسا مثلاً، " أسهمت فيتنام في الدعم الشعبي الذي أدام موقف ديغول المتزايد العداء لحلف شمال الأطلسي وللولايات المتحدة"[13].

الشكل 2: 1 - أبعاد الجاذبية الأميركية

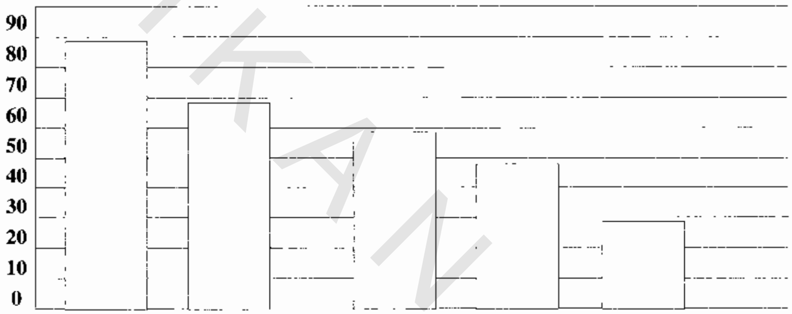

المصدر: مشروع بيو لرصد المواقف العالمية: بماذا يفكر العالم في عام 2002
متوسط المقاييس في 43 بلداً جرى مسحها

وفي مطلع الثمانينيات من القرن العشرين أثارت سياسيات الأسلحة النووية في إدارة ريغان الأولى قلقاً كبيراً. ففي استطلاع للرأي أجرته مجلة نيوز ويك الأسبوعية عام 1983، اعترضت على السياسات الأميركية مجاميع من حوالي 40 بالمئة من الناس المستطلعة آراؤهم في فرنسا، وبريطانيا، وألمانيا، واليابان. وفي الوقت نفسه، أظهرت أغلبيات في تلك البلدان كلها آراء إيجابية في الشعب الأميركي[14].

وتمكن الرئيس ريغان من الحصول على موافقة أوروبية على نشر قوات نووية متوسطة المدى. ولكن كانت هناك مقاومة أوروبية كبيرة لمحاولات سياسة عزل الاتحاد السوفيتي اقتصادياً. ويشير الشكل 2-2 إلى الكيفية التي تغيرت فيها جاذبية الولايات المتحدة مع مرور السنين.

الشكل 2-2 النسبة المئوية من الأوروبيين الغربيين الذين يقولون إن لديهم رأياً مؤاتياً جداً أو إلى حد ما في الولايات المتحدة 1982 - 2003

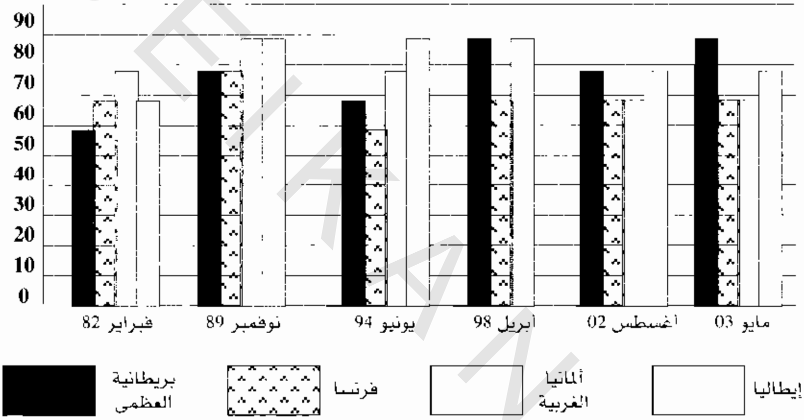

إن السياسات غير الشعبية هي أكثر العناصر تقلباً في الصورة الشاملة. ويبدو أن هناك شيئاً من الاستقرار في مخزون النوايا الحسنة يرتكز على الثقافة والقيم.

ومع ذلك فقد كانت هناك أيضاً نزعةٌ معادية لأميركا، بمعنى الرفض الأعمق للمجتمع الأميركي، وقيمه، وثقافته. وكانت تلك جديلة ثانوية ولكنها متشبثة بالبقاء في الصورة منذ زمن طويل يعود إلى أوائل أيام الجمهورية، عندما حوّل الأوروبيون أميركا إلى رمز لحروبهم الثقافية الداخلية الخاصة بهم. فمنذ القرن الثامن عشر، كان بعض

الأوروبيين يجادلون على نحو سخيف مناف للعقل أن الرطوبة المفرطة في الدنيا الجديدة تؤدي إلى أشكال منحطةً من الحياة[15]. ورغم أن بعض أوروبيّي القرن التاسع عشر رأوا أميركا رمزاً للحرية، فإن آخرين، مثل الكاتب تشارلز دكنز، لم يروا سوى "عصبة صاخبة من الدجالين، والحمقى، والمخادعين"[16]. وفي أوائل القرن العشرين كانت حتى الكاتبة الحساسة فيرجينيا وولف تعامل أميركا بمزيج من الازدراء وعدم الاهتمام. وبالنسبة للكثيرين من جناح اليسار الأوروبي كانت أميركا رمزاً للاستغلال الرأس مالي للطبقة العاملة، بينما كان على الجناح اليميني يرونها منحطة بسبب عدم نقائها العنصري[17].

وكان بعض المحافظين يكرهون طبيعة المساواة في الثقافة الشعبية الأميركية. وفي عام 1931 شكا نائب سابق للملك على الهند لبعض أعضاء البرلمان البريطاني المحافظين من أن هوليود قد ساعدت على "تمزيق نفوذ الرجل الأبيض وهيبته في الشرق". كما منعت بلجيكا الأفارقة في مستعمراتها بالكونغو من حضور الأفلام الأميركية[18]. وحتى في أيامنا هذه، كما تشير **الإيكونوميست** اللندنية، فإن النزعة المعادية لأميركا قضية طبقية في جزء منها". فالبريطانيون الأفقر والأقل تعليماً يحبون أميركا أكثر بكثير من مواطنيهم الأغنى.... ولعل نزعة العداء لأميركا لدى الطبقات العليا هي بديل للتكبر الأجوف"[19]. وينبغي إضافة التكبر العقلي إلى القائمة فأفراد النُّخَب الأوروبية كانوا دائماً يتذمرون من نقص الرفعة الثقافية الصقيلة في أميركا، ولكن استطلاعات الرأي تظهر أن ثقافة الموسيقى الشعبية الأميركية تترك أصداء واسعة لدى غالبية الناس عبر القارة كلها.

ومن المصادر الأخرى لمعاداة أميركا مصدر تركيبي هيكلي. فالولايات المتحدة هي الولد الأكبر على الساحة. وعدم التناسب في

القوة يولد خليطاً من الإعجاب، والحسد، والغيظ. والحق أنه مع بروز الولايات المتحدة كقوة عظمى عند بداية القرن العشرين، كان المؤلف البريطاني وليام توماس ستيد قد ألّف كتاباً أطلق عليه أسم **أمركة العالم**، ونشره عام 1902. وبالمثل ففي منتصف سبعينيات ذلك القرن أخبرت الأغلبياتُ عبر أوروبا الغربية مستطلعي آرائها بأنها تفضل توزيعاً متعادلاً للقوى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بدلاً من سيطرة أميركية[20]. ولكن أولئك الذين يستخفّون بالبروز الجديد لنزعة العداء لأميركا باعتبارها ببساطة ناجمة عن الحجم مخطئون في التفكير بأنه لا يمكن عمل شيء إزاء ذلك.

فالسياسات يمكنها أن تلطف الحافّات الهيكلية الصلبة أو تزيد من حدّتها، كما أنها يمكن أن تؤثر على نسبة الحب إلى كراهية في علاقات الحب – الكره المعقدة. ولقد كانت الولايات المتحدة مرموقة وبارزة أكثر حتى من الآن عند نهاية الحرب العالمية الثانية، عندما كانت تمثل أكثر من ثلث الاقتصاد العالمي، وكانت البلد الوحيد الذي يملك أسلحة نووية، ولكنها اتبعت سياسات صفقت لها البلدانُ الحليفة. وبالمثل كانت القيادة الأميركية موضع ترحيب لدى الكثيرين حتى عندما كانت نهاية الحرب الباردة تعني أنه لم يعد هناك أي بلد قادر على موازنة القوة الأميركية. وعلى سبيل المثال ففي عام 1992، جادل المثقف اليوغوسلافي ميليوفان دجيلاس بأنه إذا ضعفت قوة الولايات المتحدة "فعندئذ ينفتح الطريق أمام كل شيء سيئ". وعلى الجانب الآخر من العالم، في عام 1990، قال ناوهيرو آمايا، أحد كبار مسؤولي اليابان التي كانت مبتهجة عندئذ:"سواء أحببنا ذلك أم كرهناه، فإنه لن يكون هناك عالم حر ولا تجارة حرة إذا لم تحفظهما لنا الولايات المتحدة. وإن أفضل ما تستطيع اليابان أن تطمح إليه هو مكانة (نائب الرئيس)"[21].

وقد يخلق علاقة حب – وكره، ولكن بما لا يستطيع أن يفسر سبب الارتفاع أو الانخفاض في النزعة المعادية لأميركا في بعض الأحيان أكثر من أحيان أخرى.

وبالإضافة إلى الحجم، فقد ظلت أميركا زمناً طويلاً ترمز إلى الحداثة، التي يعتبرها بعضُ الناس مهدِّدةً لثقافتهم. ففي القرن التاسع عشر كان الأوروبيون من الجناح اليميني الذين يقاومون المجتمع الصناعي، وكذلك اليساريون الذين يريدون إعادة تشكيله، يشيرون إلى أميركا بخوف أو سخرية وازدراء. وهناك ظاهرة مماثلة حقيقية اليوم مع نمو العولمة. ففي بعض المناطق ليس هناك سخط من الواردات الثقافية الأميركية فحسب، بل وكذلك من الثقافة الأميركية نفسها. فقد وجدت استطلاعات الرأي عام 2002 أن الأغلبيات في 34 بلداً من 43 متفق مع العبارة القائلة "إن انتشار العادات والأفكار الأميركية هنا شيء سيئ"[22].

ولعل شيء محتوم أن الساخطين على القوة الأميركية وعلى الأثر الثقافي للعولمة الاقتصادية يخلطون بين الأمرين ويستخدمون النزعة القومية لمقاومتهما معاً. فصاحب مزرعة الخراف الفرنسي خوزيه بوفيه اكتسب شهرة بتحطيمه لمطعم ماكدونالد في منطقته المحلية في فرنسا[23]. ولا أحد يرغم الناس على الأكل في مطاعم ماكدونالد. ولكن قدرة بوفيه على لفت أنظار أجهزة الإعلام على نطاق عالمي تعكس الازدواجية الثقافية تجاه الأشياء الأميركية. وكما تذمّر الرئيس الإيراني عام 1999، فإن "النظام العالمي الجديد والعولمة التي تحاول قوى معينة أن تجعلنا نقبلها والتي يتم فيها تجاهل ثقافة العالم بأكمله تبد كنوع من الاستعمار الجديد"[24]. وعلق كاتب في مجلة **دير شبيغل** الألمانية بأن الوقت قد حان للمقاومة "قبل أن يرتدي العالم كله يافطة كتب عليها "صنع في الولايات المتحدة الأميركية"[25].

OBEIKAN.COM

إن معادلة العولمة بالأمركة فيها تبسيط للأمور أكثر من اللازم. فهناك ثقافات أخرى تسهم بقوة في الارتباطات العالمية. فالإنجليزية، اللغة المشتركة للتجارة الحديثة، نشرتها بريطانيا في الأصل، وليست الولايات المتحدة[26]. وكما سنرى في الفصل التالي، فإن العلاقات المهمة عالمياً بين البلدان الناطقة بالفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية على التوالي، لا علاقة لها بالولايات المتحدة. وقد نشأ مرض تناذر نقص المناعة المكتسب (الإيدز) في إفريقيا، ومرض "السارس" sars في آسيا. ثم إن لعبة كرة القدم أكثر شعبية على الصعيد الدولي من لعبة "كرة القدم" الأميركية. كما أن أشهر فريق رياضي في العالم ليس أميركياً، بل هو فريق مانشستر يونايتد البريطاني، بطل كرة القدم الضخم القوي، الذي له 200 نادٍ من المشجعين والمعجبين في 24 بلداً. والنجومية العالمية للّاعب ديفيد بيكهام كانت من الشهرة بحيث استطاع أن يحملها معه بعدما تم بيعه لنادي مدريد. أما فريقا الخنافس والحجارة المتدحرجة (Rolling Stones) فكانا من الواردات إلى أميركا. ثم إن ثلاثاً من اليافطات الموسيقية "الأميركية" البارزة يملكها بريطاني وألماني وياباني. وتحتل اليابان موقع القيادة في خلق الصور المتحركة وأكثر ألعاب الفيديو شعبية حول العلم[27]. كما أن نشوء البرمجة الواقعية في الإمتاع التلفزيوني في السنوات الأخيرة قد انتشر من أوروبا إلى الولايات المتحدة، وليس العكس. وحتى مؤسسة ماكدونالد تتعلم دروساً من فرنسا كي تعيد تصميم بعض مطاعمها الأميركية[28]. وخطوط العولمة المحيطية المتعرجة ليست من أميركا وحدها. بالرغم من أنه من الطبيعي تماماً أن تعكس تأثيراتُها الحاليةُ ما يحدث في أكبر اقتصاد في العالم. إن معادلة العولمة بالأمركة تبسيط مفرط لحقيقة معقدة.

ومع ذلك، فإن للولايات المتحدة سمات وخصائصَ عديدةً تجعلها مركزاً للعولمة. فقد كانت أميركا دائماً أرضَ مهجر. وتعكس ثقافتُها

OBEIKAN.COM

وتعددُ أعراق مجتمعها كثيراً من أرجاء العالم المختلفة. وقد استعارت أميركا بحرية من شتى التقاليد. وتبقيها الهجرةُ منفتحةً على باقي العالم. وهذا ما يجعل الولايات المتحدة مختبراً للتجريب الثقافي تترابط فيه التقاليد المختلفة وتُصَدَّر. وبالإضافة إلى ذلك، ونظراً لحجم الاقتصاد الأميركي فإن الولايات المتحدة هي أكبر سوق في العالم لاختبار ما إذا كان فيلم أو أغنية أو لعبة مّا ستجذب مستمعين متنوعين وبأعداد كبيرة. فالأفكار و البضائع تتدفق إلى داخل الولايات المتحدة بحرية، وتتدفق إلى خارجها بسهولة مماثلة - وغالباً على شكل تجاري. بل إن البيتزا في آسيا تبدو آميركية(29).

غير أن آثار العولمة وتبعاتها تعتمد على المتلقي كما على المرسل. فقبل نصف قرن كتبت هناء آرندت:"في الحقيقة فإن العملية التي يخشاها الأوروبيون باعتبارها "أمركة" هي ظهور العالم الحديث بكل تعقيداته وتداعياته الضمنية". وتكهنت بأن عملية التحديث التي تبدو أميركية سوف يعجل بها ولا يوقفها التكامل الاندماجي الأوروبي(30). وفي نيجيريا حيث كانت البرامج الأميركية تقدم أكثر من نصف المحتويات على شاشة التلفزيون في عام 1997 فإن "الحضور الكثيف المباشر وغير المباشر في كل مجال من مجالات الحياة النيجرية المهمة يضمن استمرار الأمركة، ليس في التلفزيون وحده، بل في جوانب أخرى من الثقافة النيجرية"(31). غير أن التجربة في اليابان كانت مختلفةَ جداً: "على السطح الظاهري، قد يبدو اليابانيون مستهلكين للثقافة بلا كلل ولا تميز. ولكن الطابع الأجنبي للثقافة المستوردة، ولاسيما الثقافة الأميركية، يتسرب إليهم من خلال الأيد الحريصة للوسطاء الثقافيين.... فالثقافة الأميركية يجري تهديم بنائها التركيبي وإعادة صياغته ليصبّ ضمن سياق تجربة الشعب اليومية. فالثقافة الشعبية الأميركية ليست حكراً على الأميركيين: بل هي وسط يقوم من

خلاله الناس حول بإعادة تنظيم هواياتهم الفردية والجماعية بصورة مستمرة مطردة"(32).

إن كثيراً من الآليات التي تقود العولمة هي ملامح مميزة لثقافة أميركا واقتصادها. فقد نشأ جزء كبير من ثورة المعلومات في الاقتصاد الأميركي، كما أن جزءاً كبيراً من شبكات المعلومات المعولمة يجري خلقه حالياً في الولايات المتحدة. فالمقاييس والمعايير الأميركية يصعب تجنبها أحياناً، كما هي الحال في برنامج ويندوز من مايكروسوفت، أو في القواعد التي تحكم شبكة الإنترنت (رغم أن الـ world wide web كانت اختراعاً أوروبياً). ومن جهة أخرى فإن بعض المعايير والممارسات الأميركية - من أنظمة القياس بالأرطال والأقدام (بدلاً من النظام المتري) إلى عقوبة الإعدام - قد ووجهت بالحيرة أو حتى بالعداء السافر المباشر. والعولمة أكثر من الأمركة، ولكن بالنسبة للذين في الحركة المعادية للعولمة، ممن يريدون أن يقاوموا العولمة أو يعيدوا تشكيلها فإن نزعة معاداة أميركا هي غالباً سلاح مفيد، وبالتالي فإن دمجها مع العولمة هو شيء محتوم إلى حد مّا.

الشكل 2-3: أبعاد الجاذبية الأميركية من الكتاب في العالم الإسلامي

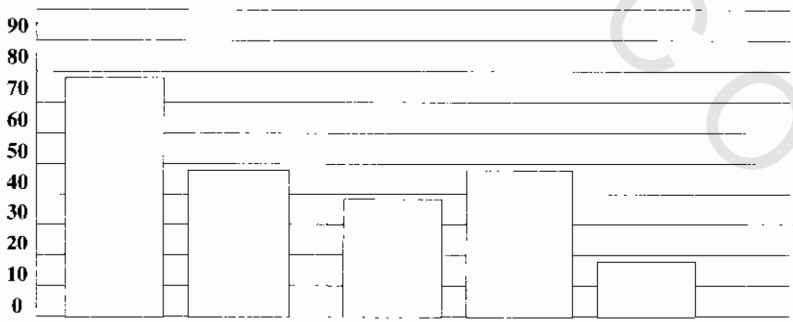

المصدر: مشروع بو للمواقف العالمية: بماذا يفكر العالم عام 2002

متوسط المقاييس في سبعة بلدان ذات أغلبية سكانية مسلمة ومما يدعو إلى القلق على وجه الخصوص دور النزعة المعادية لأميركا في العالم الإسلامي. قارن الشكل 2-3 مع الشكل 2-1 وسوف ترى أن أبعاد الجاذبية الأميركية مختلفة في العالم المسلم. فقد ذكر تقرير هيئة مكونة من الحزبين الجمهوري والديمقراطي صادرٍ عام 2003 أن "العداء تجاه أميركا وصل إلى مستويات مروعة. والمطلوب ليس مجرد تكيف تكتيكي، بل تحول إلى استراتيجي وجذري"[33].

وعلاوة على ذلك، فإن صورة الولايات المتحدة قد انحطت هناك أكثر من أي مكان آخر. ففي عام 2003 كان أقل من 15 بالمئة من عامة الناس في تركيا، وإندونيسيا، وباكستان، والأردن، وأقل من 27 بالمئة في لبنان والمغرب لديهم رأي مؤاتٍ في الولايات المتحدة.

وهذه مسألة تثير قلقاً خاصاً لأن بعض المتطرفين الإسلاميين مستعدون لاستخدام الإرهاب لفرض عودة إلى ما يصورونه على أنه نسخة أصفى لدينهم وأسبق من الحداثة. وفي بعض المناطق، كالبلدان العربية فإن النزعة المعادية لأميركا ربما تكون غطاءً لعجزٍ أعمّ عن الاستجابة للحداثة - ويشهد على ذلك التقدم البطيء للنمو الاقتصادي والدمقرطة كما هو موصوف في تقرير حديث لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي عنوانه "تقرير التنمية البشرية العربية لعام 2003"[35]. وكان فؤاد عجمي، الأكاديمي الجامعي الأميركي من أصل لبناني، محقاً في قوله بأن أميركا سوف تتعرض للسخط لأن عِبأنا هو "أن نأتي حاملين الحداثة للذين يريدونها ولكنهم يشجبونها بشكوى مريرة في الوقت ذاته، وأن نمثل ونجسد كثيراً مما يتلهف العالم عليه ويخشاه". ولكنه مخطئ في استنتاجه من ذلك أن "الأميركيين لا حاجة بهم لأن يقلقوا حول القلوب والعقول في أراضٍ أجنبية"[36]. فالوضع الذي يصفه ظل

OBEIKAN.COM

مستمراً على هذا المنوال على مدى عدد من السنوات، وبذلك فإنه لا يفسر المسار المنحني إلى الأسفل لسمعة أميركا في بلدان مسلمة ناجحة اقتصادياً مثل ماليزيا. إن فشل البلدان العربية في التكيف للحداثة لا يمكنه إعطاء تفسير كامل للتغيرات في جاذبية الولايات المتحدة، نظراً لعلاقة ذلك أيضاً بالسياسات الأميركية غير الشعبية بخصوص العراق والصراع الإسرائيلي - الفلسطيني.

وينبغي عدم المبالغة في آثار الحرب على العراق". فعلى الرغم من التنبؤات الرهيبة، لم ينهض العرب لتدمير المصالح الأميركية في الشرق الأوسط... لأن كثيرين منهم كانوا يعرفون سجل صدام حسين"[37]. وكما هو مذكور آنفاً، فإن صور بلد ما تتألف من عدة عناصر، وقد أظهر المجيبون على استطلاعات الرأي كراهية لسياسات أميركا أعظم من كراهيتهم للشعب الأميركي[38]. ومع ذلك، فقد حدثت حالات مقاطعة للمنتجات الأميركية، وهبطت حصة أميركا من البضائع المصدرة إلى الشرق الأوسط من 18٪ إلى 13٪ من أواخر تسعينيات القرن العشرين إلى أواخر عام 2001، وكان جزء من سبب ذلك هو الاستجابة "لإدراكهم فقدان أميركا للشرعية في سياستها الخارجية"[39]. وكان المتطرفون الإسلاميون قد عارضوا الحملة الأميركية ضد طالبان في أفغانستان. أما الحرب على العراق فقد زادت من فرصهم لإثارة الكراهية ضد أميركا. ولكن مثل هذه الكراهية تكتسب أهمية متزايدة في عالم تستطيع فيه مجموعات صغيرة أن تستخدم الإنترنت لإيجاد أناس يحملون طريقة التفكير نفسها لتجنيدهم بعد أن كان كل منهم في السابق يجد صعوبة اكبر في تحديد موقع الأخر. وكما لاحظ المؤلف روبرت رايت، فإن أشرطة فيديو أسامة بن لادن الداعية للتطوع فعالة جداً" وستصل إلى مستمعيها المستهدفين عن طريق الموجة العريضة من الذبذبات الكهرطيسية بشكل فعال أكثر"[40].

إن الهبوط الحديث في جاذبية الولايات المتحدة كما يقال يوضح النقطة التي طرحتها في الفصل السابق: لا يكفي أن تكون هناك مصادر قوة مرئية. ففي حالة القوة الناعمة، فإن المسألة هي: ما هي الرسائل المبعوثة، ومن هم الذين يتلقونها، وتحت أي ظروف، وكيف يؤثر ذلك على قدرتنا على الحصول على النتائج التي نريدها. والرسائل والصور ينتقل جزء منها عن طريق سياسات الحكومة في الداخل والخارج، وجزء آخر عن طريق الثقافة الشعبية والثقافة العالية. ولكن الرسائل نفسها يتم "إنزالها" وتفسيرها على أيدي متلقين مختلفين في سياق ظروف مختلفة فتترك آثاراً مختلفة. فالقوة الناعمة ليست عنصراً ثابتاً بقيمة ثابتة، بل هي شيء يختلف باختلاف الزمان والمكان.

الثقافة كمصدر للقوة الناعمة

وكما نعلم، فإن النقاد الثقافيين كثيراً ما يميزون بين الثقافة العليا والثقافة الشعبية. ويتفق كثير من المراقبين على أن الثقافة الأميركية العالية تنتج قوة ناعمة ذات أهمية للولايات المتحدة.

وعلى سبيل المثال فقد قال وزير الخارجية كولن باول: "لا أستطيع أن أفكر في رصيد لبلدنا أثمن من صداقة قادة عالم المستقبل الذين تلقوا تعليمهم هنا"[41]. ذلك أن الطلبة الدوليين يعودون إلى أوطانهم في العادة بتقدير أكبر للقيم والمؤسسات الأميركية، وكما هو وارد في تقرير لمجموعة تعليمية دولية، فإن "ملايين الناس الذين درسوا في الولايات المتحدة على مدى سنوات يشكلون خزاناً رائعاً للنوايا الحسنة تجاه بلدنا"[42]. وكثير من هؤلاء الطلبة السابقين ينتهي بهم الأمر إلى احتلال مراكز يستطيعون من خلالها التأثير على نتائج السياسة التي هي مهمة للأميركيين.

إن الدبلوماسي والكاتب الأميركي المتميز كينان هو واقعي تقليدي في اهتمامه بسياسة موازين القوى، ولكنه أسند أهمية عظيمة "للاتصال الثقافي كوسيلة لمكافحة الانطباعات السلبية عن هذا البلد والتي تشكل جزءاً كبيراً من الرأي العالمي". وقال كينان إنه "مستعد للاستغناء عن المخزون المتبقي من الدعاية السياسية لقاء الحصول على النتائج التي يمكن تحقيقها بمثل هذه الوسيلة وحدها". وجادل الرئيس دوايت آيزنهاور بأن هناك حاجة "لترتيب ألف طريقة، لا طريقة واحدة، يستطيع الناس بها أن يتعلم كل منهم بالتدريج شيئاً قليلاً عن الآخر". والحقّ أن الاتصالات الثقافية العالية كثيراً ما كانت تنتج قوة ناعمة للولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة. فقد قامت عشرات المؤسسات غير الحكومية، مثل المسارح، والمتاحف، وفرق الأوبرا بالعمل في الاتحاد السوفيتي. ولاحظ موسيقار سوفيتي أنه وزملاءه قد تدربوا على الاعتقاد بأن الغرب متفسخ منحط، ومع ذلك فقد كانت فرق الأوركسترا الموسيقية السيمفونية العظيمة تأتي عاماً بعد عام من بوسطن وفيلادلفيا ونيويورك وكليفلاند وسان فرانسيسكو". فكيف يستطيع الغرب المتفسخ المنحط أن ينتج مثل هذه الفرق العظيمة؟"(43).

وقد لعبت المبادلات الأكاديمية والعلمية دوراً مهماً في توسيع القوة الأميركية الناعمة وتعزيزها. وحتى عندما كان بعض المتشككين الأميركيين يخشون من أن العلماء الزائرين السوفييت وعملاء مكتب أمن الدولة (الـ KGB) سوف "يسرقون كل أسرارنا" فإن أولئك المتشككين عجزوا عن ملاحظة أن الزوار قد أخذوا معهم أفكاراً سياسية بالإضافة إلى الأسرار العلمية. وقد أصبح كثير من أمثال هؤلاء العلماء من قياديّي أنصار حقوق الإنسان والتحرر الليبرالي داخل

الاتحاد السوفيتي. فبدءاً من خمسينيات القرن العشرين، راحت مؤسسة فورد، ومجلس الجمعيات التعليمية، ومجلس بحوث العلوم الاجتماعية تعمل مع عدد من الكليات والجامعات الأميركية وصل في آخر الأمر إلى 110 في مجال تبادل الطلبة والأساتذة. ورغم أن الاتحاد السوفيتي طالَبَ باتفاقية حكومية للحد من نطاق مثل هذه المبادلات، فقد زار الولايات المتحدة حوالي 50.000 سوفيتي بين عامي 1958 و 1988 ما بين كتاب، وصحفيين، وموظفين، وموسيقيين، وراقصين، ورياضيين، وأكاديميين. وذهب إلى الاتحاد السوفيتي عدد من الأميركيين أكثر من ذلك.

ففي الخمسينيات لم يشترك في المبادلات سوى 40 إلى 50 طالباً جامعياً أو خريجاً من كل من البلدين، ولكن مع مرور الزمن صار بالإمكان تتبع تأثيرات سياسية قوية تعود إلى تلك الأعداد القليلة. وبما أن المبادلات الثقافية تؤثر على أفراد النخبة في كل مجتمع، فإن اتصالاً أو اثنين من الاتصالات المهمة قد يكون لها أثر سياسي كبير. وعلى سبيل المثال، فإن الكساندر ياكوفليف تأثر تأثراً قوياً بدراساته مع العالم المختص بالسياسة ديفيد ترومان بجامعة كولومبيا في عام 1958. وقد انتهى الأمر بياكوفليف إلى أن أصبح رئيساً لمعهد مهم، وعضواً في المكتب السياسي، ومؤثراً ليبرالياً انفتاحياً مهماً على الزعيم السوفيتي ميخائيل غورباتشوف. وكان من زملائه الطلبة أوليغ كالوجين، الذي أصبح من كبار مسؤولي الـ GBK (مكتب أمن الدولة). وقال في عام 1997 مستذكراً: "كانت التبادلات حصان طروادة الذي دخل إلى الاتحاد السوفيتي. فقد لعبت دوراً هائلاً في تآكل النظام السوفيتي.... وظلت تصيب بعدواها عدداً أكبر فأكبر من الناس على مدى سنوات"[44]. فجاذبية القوة الناعمة التي نمت من الاتصالات الثقافية بين أفراد النخبة في البلدين قدمت إسهاماً مهماً في تحقيق أهداف السياسة الأميركية.

إن تتبع الآثار السياسية المحددة للاتصالات الثقافية العليا أسهل من إظهار الأهمية السياسية للثقافة الشعبية. فقد أشار آليكسيس دي توكونيل في القرن التاسع عشر إلى أنه في دولة ديمقراطية ليست هناك قيود تفرضها الطبقة أو النقابة على الحرفيين ومنتخباتهم. والذوق العام يَسُود. وبالإضافة إلى ذلك فإن المصالح التجارية في اقتصاد رأسمالي تبحث عن أسواق واسعة، كثيراً ما تنجم عنها أبسط المستويات أو القواسم الثقافية المشتركة. فبعض الناس يعتقدون أن الثقافة الشعبية الأميركية تغري من خلال قوة تسويقها المحصنة ووعدها بأن تكون سارَّة ممتعة(45). وكثير من المثقفين والمفكرين والنقاد يزدرون الثقافة الشعبية بسبب نزعتها التجارية الفجّة. ويعتبرونها تقدم إمتاعاً جماعياً وليس معلومات، وبذلك فليس لها تأثير سياسي. وهم ينظرون إلى الثقافة الشعبية كمخدر وأفيون للجماهير لا علاقة له بالسياسة مطلقاً.

ومثل هذا الازدراء ليس في محله على أية حال، لأن الإمتاع الشعبي كثيراً ما يحتوي على صور ورسائل لا شعورية عن الفردية، وحرية الخيار للمستهلك، وقيم أخرى لها آثار سياسية مهمة. وكما قد جادل المؤلف بِنْ واتنبرغ، فإن الثقافة الأميركية تشمل البريق السطحي والإثارة الرخيصة، والجنس، والعنف، والتفاهة المبتذلة، والنزعة المادية، ولكن هذا ليس هو القصة بكاملها. فالثقافة الشعبية أيضا تصور القيم الأميركية المنفتحة، والمتحركة، والفردية النزعة، والمعاكسة لمؤسسات النظام القائم، والمتعدد الأطراف، والطوعية، والحرة، والمتصلة بالطبقات الشعبية الدنيا. "إن هذا المحتوى سواء انعكس بصورة مؤاتية أم غير مؤاتية، هو الذي يأتي بالناس إلى شباك التذاكر. وهو محتوى أقوى من السياسة أو الاقتصاد. بل هو الذي يحرك السياسة

والاقتصاد"[46]. أو كما قال الشاعر كارل ساندبيرغ عام 1961: "ماذا؟ هل هوليود أهم من هارفارد؟ والجواب هو: إن هوليود ليست لها نظافة هارفارد، ولكنها مع ذلك أقدر من هارفارد على الوصول إلى أمد أبعد[47].

وحتى الرياضيات الشعبية يمكن أن تلعب دوراً في نقل القيم وإيصالها. فهي "تخلق أميركا لا هي بالقوة العسكرية المسيطرة ولا هي بالدكتاتورية التي تشبه وحشاً جماعياً ضخماً - بل مكاناً أكثر تحرراً وأقل جموداً وأكثر تحرراً، حيث يستطيع كل من يعمل بجهد جادّ في قذف الكرة أو اللعب بالقرص المطاطي (في لعبة هوكي الجليد) أن يصبح مشهوراً و(نعم) غنياً[48]. والأعداد كبيرة. فمباريات كرة السلة الوطنية تذاع في 750 مليون منزل في 212 بلداً، وباثنتين وأربعين لغة. ومباريات كرة القاعدة (البيسبول) في دوريّ النوادي الكبرى تتدفق إلى 224 بلداً بإحدى عشرة لغة. أما التجمع الكبير لمباريات نوادي الفوتبول الأميركي الوطنية فقد اجتذب عدداً من المشاهدين قدر بثمانمئة مليون في عام 2003. كما أن عدد مشاهدي البرامج الرياضية ينافس الـ 7300 مليون شخص الذين ذهبوا لمشاهدة أفلام أميركية في جميع أنحاء العالم عام 2002.

فالخط الفاصل بين المعلومات والإمتاع لم يكن حاداً إلى الدرجة التي يتصورها بعض المفكرين، وهو آخذ في الانطماس بصورة متزايدة في عالم من أجهزة الإعلام. فبعض أغاني الموسيقى الشعبية قد تكون لها تأثيرات سياسية. وعلى سبيل المثال، فإن محطة الإذاعة المنشقة ب - 92 في بلغراد ظلت تكرر أغنية "عدو الشعب" التي تنطقها فرقة أغان سريعة أميركية تقول فيها: "إن حرية الكلام عندنا هي الحرية أو الموت - وعلينا أن نقاتل القوى القابعة في سدة الحكم"[49]. كما أن الرسائل السياسية يمكن نقلها من خلال طريقة سلوك فرق الرياضة أو النجوم،

أو الصور المتعددة التي يعرضها التلفزيون أو السينما. فالصور كثيراً ما تنقل القيم بصورة أقوى مما تفعل الكلمات، وهوليود هي أكبر مروّج ومصدّر للرموز البصرية[50]. وحتى استهلاك الوجبات السريعة قد يقدم بياناً ضمنياً عن رفض الطرق التقليدية. فقد وصفت أسرة هندية زيارتها لماكدونالد بأنها النزول للحصول على "شريحة من أميركا"[51]. وعلى الجانب السلبي، ففي أعقاب الحرب على العراق، قاطع عدد من المسلمين الكوكا كولا واتجهوا نحو منتجات مقلدة لها مثل "مكة كولا" و"مسلم آب" كبديل "لجميع الذين يقاطعون المنتجات الصهيونية والعلاقات التجارية الأميركية الكبيرة". وليست تأثيرات الثقافة الشعبية جديدة كلياً. فالمؤرخ الهولندي روب كروز يشير إلى أن الملصقات المنَتَجة لحساب خطوط السفن وجمعيات الهجرة في أوروبا القرن التاسع عشر كانت تخلق للغرب الأميركي صورة تجعله رمزاً للحرية قبل زمن طويل من الثورة الاستهلاكية في القرن العشرين. وكان الشباب الأوروبيون "يترعرعون وهم يبنون عوالمَ ذات معان مستمدة من مكونات ورموز أميركية". وكانت الإعلانات التجارية الأميركية في عام 1944 تشير إلى الحريات الأربع التي تبناها الرئيس فرانكلين روزفلت وتتوسع في ذكرها، وبذلك تعزز درس الحقوق المدنية الرسمية. وقد راح "جيل بعد جيل من الشباب الذين ترعرعوا في ظروف أوروبية متنوعة، شرق الستار الحديدي وغربة، يستمتعون بالنيابة عن الآخرين بمسرات البدائل الثقافية المتعة... ذلك أن بعض الأشياء البسيطة، كسراويل الجينز القطنية الزرقاء، أو الكوكاكولا، أو ماركة معينة من السجائر اكتسبت قيمة إضافية ساعدت تلك الأجيال الشابة على التعبير عن هوية خاصة بهم تماماً".

وقد ساعدت جاذبيةُ الثقافة الشعبية هذه الولايات المتحدة على تحقيق أهداف مهمة في سياستها الخارجية. فكان أحد الأمثلة إعادة

الإعمار الديمقراطي لأوروبا بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت خطة مارشال ومنظمة حلف شمال الأطلسي أداتين حساستي الأهمية للقوة الاقتصادية والعسكرية الهادفة إلى تحقيق تلك النتيجة. ولكن الثقافة الشعبية قد ساهمت في ذلك أيضاً وعلى سبيل المثال، فإن المؤرخ النمسوي رينهولد فاغنيلينتر يجادل بأن "التكييف السريع للثقافة الشعبية الأميركية على أيدي الأوروبيين بعد الحرب العالمية الثانية قد أسهم بشكل ايجابي بالتأكيد في دمقرطة تلك المجتمعات. فقد جدد شباب ثقافة أوروبا ما بعد الحرب وأعاد لها حيويتها والمعاني الإضافية المترافقة مع الحرية، والعفوية، والحيوية، والليبرالية المنفتحة، والحداثة، وروح الشباب.... وكان في الخضوع لإملاءات السوق والأعمال التجارية أيضاً عنصر تحرر من قيود العادات والأعراف التقليدية"[54]. وكانت الدولارات المستثمرة في مشروع مارشال مهمة في تحقيق الأهداف الأميركية وإعادة إعمار أوروبا، ولكن الأفكار التي نقلتها الثقافة الشعبية الأميركية كانت مهمة كذلك.

وأسهمت جاذبية الثقافة الشعبية أيضاً في تحقيق أحد الأهداف الكبرى للسياسة الخارجية الأميركية - وهو انتصار في الحرب الباردة. فقد كانت للاتحاد السوفيتي قدرات عسكرية رهيبة تشكل تهديداً لأوروبا الغربية، وفي أوائل فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية كان لديه أيضاً مصادر مهمة للقوة الناعمة من جاذبية العقيدة الآيديولوجية الشيوعية وسجله في التصدي لألمانيا النازية. غير أنه بدد جزءاً كبيراً من هذه القوة الناعمة من خلال ممارسته للقمع في الداخل وفي أوروبا الشرقية،[55] وأدائه الاقتصادي غير الكفؤ في سنواته الأخيرة (حتى مع ازدياد قوته العسكرية). فالبرامج الدعائية والثقافية السوفيتية التي كانت تديرها الدولة لم تستطع أن تضاهي تأثير ثقافة أميركا الشعبية

التجارية في المرونة والجاذبية. فجدار برلين كان قد تم اختراقه بالتلفزيون والأفلام السينمائية قبل زمن طويل من سقوطه في عام 1989. ذاك أن المطارق والجرافات ما كانت لتنتج لولا انتقال الصور المبثوثة من ثقافة الغرب الشعبية على مدى سنوات طوال فاخترقت الجدار قبل أن يسقط.

ورغم أن الاتحاد السوفيتي قد فرض قيوداً ورقابة على الأفلام الغربية، فإن الأفلام التي نفذت عبر مصفاة القيود والرقابة كانت مع ذلك قادرة على أن تحدث آثاراً سياسية مدمرة. وكانت بعض الآثار السياسية مباشرة أحياناً، ولو غير مقصودة. فقد علق صحفي سوفييتي بعد عرض مقيد لجمهور محدود لفلمين هما على **الشاطئ والدكتور سترينجلاف** (وكان كلاهما ينتقد سياسات أميركا الخاصة بالأسلحة النووية) فقال: "لقد أصابانا بصدمة مطلقة.... إذ بدأنا ندرك أن الشيء نفسه الذي حدث لهم سيحدث لنا في حالة نشوب حرب نووية" وكانت هناك تأثيرات سياسية أخرى غير مقصودة انتقلت بشكل غير مباشر. ذلك أن المشاهدين السوفييت الذين كانوا يتفرجون على أفلام ذات مواضيع لا علاقة لها بالسياسة قد عرفوا منها مع ذلك أن الناس في الغرب لم يكونوا مضطرين للوقوف في صفوف طويلة لشراء المواد الغذائية، ولم يكونوا يعيشون في شقق جماعية مشاعة، وكانوا يملكون سيارات خاصة. وأدى ذلك كله إلى إثبات عدم صحة الآراء السلبية التي كانت تذيعها أجهزة الإعلام السوفيتية.

وحتى موسيقى الروك آندرول لعبت دوراً بالرغم من الجهود السوفيتية لإحباطها، وكما شهد أحد معاوني غورباتشوف فيما بعد: "كانت فرقة الخنافس هي طريقتنا الهادئة لرفض "النظام" أثناء تلبيتنا لمعظم مطالبه". وقد أجاد جورجي شاكنازاروف، أحد كبار المسؤولين

الشيوعيين، في وصف التأثيرات السياسية عندما قال: "كنا جميعاً، أنا وغورباتشوف والآخرين ذوي تفكير مزدوج. إذ كان علينا أن نوازن في أذهاننا بين الحقيقة والدعاية طيلة الوقت". وقد اتضحت آثار التآكل على ثقة السوفييت بأنفسهم وعقيدتهم الآيديولوجية في أعمالهم عندما وصل ذلك الجيل إلى السلطة في آخر الأمر في منتصف ثمانينيات القرن العشرين.

وبالمثل، فقد قام مسؤولون شيوعيون تشيك بإصدار حكم بحبس مجموعة من الشباب في خمسينيات ذلك القرن لأنهم استمعوا إلى أشرطة "موسيقى أميركية متفسخة منحطة". ولكن جهودهم ثبت أنها أعطت نتيجة عكسية. وقد وصف ميلوس نورمان في ستينيات القرن العشرين كيف "تسمع إلى بيل هيلي وآلفيس بريسلي، فيعجبك ذلك كما تعلم، ثم يطل عليك من شاشة التلفزيون التشيكي وجه صارم يسألك: "هؤلاء القرود الهاربون من الغابة – هل يمثلون كرامة الإنسانية وعزّتها؟ ... وأخيراً فإنك تفقد كل احترام، كما تعلم". وفي عام 1980، بعد أن اغتيل جون لينيون، ظهر نصبٌ تذكاري له بصورة عفوية في براغ. وبعد ذلك راحت ذكرى موته تتميز بمسيرة سنوية من أجل السلام والديمقراطية. وفي عام 1988 أسس منظموها نادياً للسلام باسم لينون. وراح أعضاؤه يطالبون بإبعاد القوات السوفييتية[57]. ومع مرور الوقت، تغلب لينون على لينين. وكما لخص أحد المؤرخين الوضع، فإنه "مهما كانت أهمية قوة الولايات المتحدة العسكرية ووعدها السياسي في إرساء أساس النجاحات الأميركية في أوروبا الحرب الباردة، فالحقيقة هي أن جاذبية أميركا الاقتصادية والثقافية هي التي كسبت عقول وقلوب أغلبيات الشباب للديمقراطية الغربية.... وكلما كان الاستهلاك الحقيقي يصعد إلى الحلبة، كانت هناك فرص عالية

بأنه يتعين استبعاد الاشتراكية الحقيقية"[58]. فالحرب الباردة تم كسبها بخليط من القوتين: الصلبة والناعمة. فالقوة الصلبة خلقت جداراً صاداً من الاحتواء العسكري، ولكن القوة الناعمة جعلت النظام السوفييتي يتآكل ويهترئ من الداخل. ولم تكن مصادر القوة الناعمة كلها أميركية - كما تشهد على ذلك هيئة الإذاعة البريطانية والخنافس. ولكن من الخطأ تجاهل الدور الذي لعبته جاذبية الثقافة الشعبية الأميركية في الإسهام في الجزء الناعم من المعادلة.

فالثقافة الشعبية لم تقتصر صلتها على تحقيق أهداف أميركا السياسية في أوروبا الغربية فحسب، بل كانت مهمة أيضاً لعدد آخر من أهداف السياسة، بما في ذلك تقويض نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، وزيادة عدد الحكومات الديمقراطية في أميركا اللاتينية وأجزاء من آسيا الشرقية، وإسقاط نظام ميلوسوفيتش في صربيا، والضغط من أجل التحرر الليبرالي في إيران، وتعزيز نظام اقتصادي دولي منفتح، وهذه حالات قليلة نذكرها على سبيل المثال لا الحصر. والواقع أنه في عام 1971، عندما كان الجدل يدور في جنوب إفريقيا حول إمكانية السماح بإدخال التلفزيون إلى البلد، رفض ذلك آلبرت هيرتزوغ، وزير البريد والبرق السابق ذو النزعة المحافظة، معتبراً التلفزيون رمزاً للانحلال الغربي المنحط الذي "من شأنه أن يؤدي إلى تحطيم معنويات حضارة جنوب إفريقيا وتدمير نظام الفصل العنصري"[59]. ولقد ثبت أنه كان على حق.

وبالمثل، ففي عام 1994 أصدر أحدا أعلى رجال الدين رتبةً في إيران فتوى ضد أقراص التلفزيون الهوائية المتصلة بالأقمار الصناعية لأنها ستدخل ثقافة رخيصة غريبة وتنشر أمراض الغرب الأخلاقية[60]. فثبت أنه كان على حق، هو الآخر. وبعد ذلك بعشرة أعوام، قامت مظاهرات

OBEIKAN.COM

حاشدة في طهران أعقبت انتشار محطات الإذاعة والتلفزة الأميركية الخاصة. وقد بدأت تلك المحطات أول الأمر ببث برامج باللغة الفارسية للمهاجرين الإيرانيين في لوس آنجيلوس، ولكنها تحولت فيما بعد إلى تغطية السياسة الإيرانية أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، وراحت تذيع إلى إيران معلومات لم تكن متاحة هناك لولاها(61). ولم تكن هذه مجرد أقلية رجعية أصيبت بعدوى الأفكار الغربية. وكما ذكر أحد الأساتذة، فإنه "بعد أقل من عقد على وفاة الخميني، فإن هؤلاء الثوريين المتنورين - الشباب من محاربي الثورة القدماء - راحوا يطالبون بمزيد من الحريات والحقوق السياسية"(62).

وفي الصين، برغم الرقابة، تتسرب الأخبار الأميركية عبر الحدود إلى النخب الصينية عن طريق الإنترنت، وغيرها من وسائل الإعلام، والمبادلات التعليمية. ففي عام 1989، قام الطلبة المحتجون في ساحة تيانانمين ببناء نسخة من تمثال الحرية. وقالت إحدى المنشقات لمراسل أجنبي إنها عندما كانت تُرْغَمُ على الاستماع إلى زعماء الحزب الشيوعي المحليين وهم يصرخون في غضب ضد أميركا، كانت تدندن في رأسها بأنغام بوب ديلان كنوعٍ خاص بها من الثورة الصامتة. ولاحظ مراسل آخر "أن الكثيرين يؤمنون بأن القلة القليلة من أفلام هوليود التي تسللت إلى صالات العرض الصينية، مع أقراص DVD المهربة بشكل غير قانوني، قد لعبت دوراً في إثارة الأشواق المتلهفة على التعجيل بالتغيير في صفوف المواطنين الصينيين العاديين"(63).

وكما علمنا في الفصل الأول فإن الثقافة الشعبية، نظراً لأنها ليست تحت سيطرة حكومية مباشرة، لا تعطي دائماً نتائج السياسة التي قد ترغب فيها الحكومة بالضبط. وعلى سبيل المثال ففي أثناء الحرب الفيتنامية، كانت لدى الحكومة الأميركية أغراض سياسية

متعددة تشمل كلاً من النصر العسكري على الشيوعية في فيتنام والانتصار السياسي على الشيوعية في أوروبا الوسطى. فلم تساعدها الثقافة الشعبية على إحراز النتائج المرغوبة فيما يتعلق بالهدف الأول، ولكنها ساعدت على تحقيق الهدف الآخر. وعلى سبيل المثال، فقد وصف رينهولد فاغنيلينتر مظاهرات الطلبة في النمسا ضد الحرب الفيتنامية: "تظاهرنا بسراويل الجينز القطنية الزرقاء وقمصان الـ T - Shirt القطنية، وحضرنا اعتصامات وتجمعات دراسية. وعلاوة على ذلك فإن عدداً لا باس به منا فهموا ما معنى أن يتمكنوا من التظاهر ضد الحرب في وقت الحرب دون أن يتعرضوا لمحاكمة عسكرية. كما كان بعضنا واعين بأننا قد تعلمنا تكتيكاتنا السلمية للاحتجاج الديمقراطي والمعارضة من حركة الحقوق المدنية الأميركية والحركة المعادية للتسلح النووي. غير أننا لم نترنم بأنشودة الاشتراكية الدولية، بل غنينا بدلاً منها أغنية "سوف نتغلب"[(64)]. إسن حركات الاحتجاج هي جزء من الثقافة الشعبية التي يمكنها اجتذاب بعض الأجانب إلى انفتاح أميركا في حين تنفرهم سياساتها الرسمية وتثير اشمئزازهم في الوقت ذاته.

وقد تكون للثقافة الشعبية تأثيرات متناقضة على مجموعات مختلفة ضمن البلد نفسه. فهي لا تقدم مصدراً متجانساً للقوة الناعمة. فأشرطة الفيديو التي تجتذب المراهقين الإيرانيين تؤذي مشاعر المشايخ الإيرانيين. وهكذا فإن النفور من الثقافة الشعبية الأميركية قد يجعل من الصعب على الولايات المتحدة أن تحصل على نتائجها السياسية المفضلة من الجماعة الحاكمة على المدى القصير، بينما تشجع جاذبيةُ الثقافة الناعمة التغييرَ المرغوب في صفوف الشباب على المدى الطويل. وفي بعض الأحيان فإن التأثيرات قد تنتقص من الأهداف الأميركية على المدى الأطول. ففي تركيا، وحسب

رأي صحفي تركي، فإن " انتشار الثقافة الشعبية الأميركية في صفوف الطبقة المتوسطة العليا بالدرجة الأولى، وبشكل سطحي أقل في صفوف الطبقة الدنيا من السكان الأتراك قد خلف أعقابه معارضة للإيديولوجية الكامنة وراء تلك الثقافة. وإن عودة النزعة الأصولية إلى النهوض في السنوات الأخيرة، والتي تشكل تهديداً خطيراً للعلمانية، هي المسؤولة عن خلق هوة انفتحت بين الطبقة المتنفذة المتأمركة، والطبقة الوسطى الدنيا، والفقراء[65]. ومع ذلك فحتى فترة التوتر في أعقاب 11 أيلول/ سبتمبر، ورغم القيود على تأشيرات الدخول، فإن استطلاعاً للرأي أجراه المجلس الثقافي البريطاني بين 5000 طالب في تسعة بلدان إسلامية قد أظهر أن الولايات المتحدة ما تزال هي الخيار الأول للشباب في مصر، وتركيا، والعربية السعودية، كموقع لمتابعة تعليمهم في الخارج[66]. إن الازدواجية هي رد فعل شائع إزاء الولايات المتحدة. وحيث توجد الازدواجية هناك مجال للسياسة كي تحاول تحسين نسبة الأبعاد الإيجابية إلى الأبعاد السلبية.

وأخيراً، فإن أدوات الثقافة الشعبية ليست ساكنة جامدة. فليس من المؤكد ما إذا كان تأثير الثقافة الأميركية سوف يتزايد أم يتناقص في المستقبل. فسوف تعتمد المحصلة جزئياً على ما إذا كانت السياسات غير الشعبية ستفيض في آخر الأمر لتزيد من سلبية ردود الفعل العامة على الثقافة الشعبية الأميركية. وستعتمد أيضاً على تغيرات السوق المستقلة التي لا علاقة لها بالسياسة. وعلى سبيل المثال، فإن الأفلام الأميركية لا تزال تحصل بشكل وفير على 80 بالمئة من عائدات صناعة السينما في العالم كله، ولكن التلفزيون الأميركي قد شهد هبوطاً في حصته من السوق العالمية في السنوات الأخيرة. فالتلفزيون يجتذب سوقاً أكثر تجزئة وانقساماً، إذ أثبتت المحتويات

المحلية أنها أهم في الوصول إلى المشاهدين الوطنيين من قمة الثقافة الأميركية التي يقدمها الإنتاج الأميركي النمطي النموذجي(67). فقد وجد مركز نلسون للبحوث الإعلامية أن 71 بالمئة من أهم البرامج في ستين بلداً جرى مسحها كانت من إنتاج محلي، تمثل زيادة مطردة على مدى السنوات السابقة. ويبدو أن أسباب ذلك لها علاقة بتغيرات السوق واقتصاديات الأحجام في إرضاء الأذواق المحلية أكثر من علاقتها بردود الفعل السياسية(68).

وعلاوة على ذلك فإن استيعاب جماهير المشاهدين الأجانب لثقافة شعبية الأميركية ربما يجعلها أقل غرابة مع مرور الزمن، وبالتالي تقل جاذبيتها الآسرة لهم. وقد حدث شيء مماثل لتلقي الأوروبيين لعروض الغرب الأميركي المتوحش في القرن التاسع عشر، كما أن إنتاج شبكة MTV قد خسرت شيئاً من المساحة لمقلديها المحليين. ويتكهّن أحد الخبراء بأن "عولمة الثقافة الشعبية الأميركية كما نعرفها ونناقشها اليوم قد تثبت أنها ظاهرة مؤقتة، وليست ذات شأن على الصعيد الدولي إلاّ بقدر ما تستغرق لتوليد استجابة محلية تختبر أي الفرضيات المنطقية يمكن تكييفها بنجاح للظروف والتوقعات المحلية"(69). ويصعب التنبؤ فيما إذا كان فقدان الغرابة سيصبح شيئاً خطيراً في تأثيره على موارد القوة الناعمة أم لا.

غير أن أخبار التلفزيون قد شهدت تغيراً سياسياً واضحاً. فأثناء حرب الخليج انفردت بالميدان شبكة CNN وهيئة الإذاعة البريطانية فاحتكرتا تحديد إطار القضايا. وعلى سبيل المثال، فإن غزو العراق للكويت قد تم وصفه على أنه عدوان عراقي وليس استرجاعاً لمقاطعة الكويت المفقودة، كما رآه العراقيون. (وقد وضعت الهند غزوها لمقاطعة غوا القديمة التابعة لها في إطار مماثل بالطريقة نفسها، فلم يكن

هناك أي ردة فعل دولي على ذلك). وبحلول وقت حرب العراق صارت محطة الجزيرة وغيرها منافسين فاعلين في تحديد إطار القضايا. وعلى سبيل المثال فإن صورة القوات المتحركة كان يمكن وصفها بدقة في محطة الـ CNN بأنها "التقدم قوات التحالف" بينما تصف محطة الجزيرة الصورة نفسها بأنها "تقدم القوات الغازية". فكانت النتيجة الصافية هي الانتقاص من قوة أميركا الناعمة في المنطقة عند مقارنة حرب 2003 بحرب 1991.

وقد قررت فرنسا الآن أن تنشئ قناة إخبارية تلفزيونية معددة اللغات خاصة بها. ذلك أنها استنتجت بأن "الجزيرة هي برهان على إمكانية كسر هذا الاحتكار، وأن هناك طلباً للأخبار غير الأنغلو - أميركية"(70). ويعتقد بعض المحليين أن "السيطرة الأميركية في مجال تدفق الاتصالات المعولمة هي أقل قوة مما كانت عليه في الماضي. وعلى عكس ذلك فإن القلق المتنامي ليس هو الشكوى من التأثير الثقافي الأميركي المفرط حول العالم، بل السرعة المذهلة التي تبيعها أميركا صناعات ثقافية الشعبية لمشترين أجانب"(71).

ومن الجدير بالذكر أنه بينما تستمر الشركات الأميركية في السيطرة على العلامات التجارية المعولمة، فإن تغيرات السوق قد أنتجت تجزئة متزايدة لهذه العلامات. فقبل عقد من الزمن ومع سقوط الحواجز المعيقة للتجارة فإن العلامات التجارية ذات النطاق العالمي سوف تطرد العلامات المحلية. والواقع أنه عندما تقاطعت حالات القلق على الاستقلال الذاتي المحلي مع التقنيات التي تتيح تحقيق اقتصاديات ذات منتجات كبيرة وواسعة النطاق في تميزها وتخصصها، راح توحيد مقاييس العلامات التجارية يتعرض للتحدي. فشركة الكوكاكولا أكثر من 200 علامة تجارية (كثيراً ما تكون غير مرتبطة مع

الشركة الأم بشكل مكشوف)، بينما تغير ماكدونالد قوائم أطعمتها بحسب المناطق، واستجابات شبكة MTV ببرامج مختلفة للبلدان المختلفة[72] وحتى قبل حالات المقاطعة السياسية التي أعقبت الحرب على العراق، كانت اتجاهات السوق تنتقص من سيطرة العلامات الأميركية. إن مصادر الثقافة الشعبية القادرة على إنتاج قوة أميركية ناعمة لها أهميتها. ولكنها بعيدة عن السكون الجامد.

القيم والسياسات المحلية

إن الولايات المتحدة، مثل البلدان الأخرى، تعبر عن قيمتها فيما تفعله، وكذلك فيما تقوله. فالقيم السياسية، كالديمقراطية وحقوق الإنسان يمكن أن تكون مصادر جذب قوية، ولكن مجرد إعلانها لا يكفي. فأثناء الحرب الباردة، كان الرئيس آيزنهاور قلقاً من كون ممارسة الفصل العنصرية في الولايات الجنوبية في أميركا آخذة في تنفير الدول حديثة الاستقلال في إفريقيا. ذلك أن الآخرين يراقبون كيفية تنفيذ الأميركيين لقيمهم في الداخل كما في الخارج. وقد أخبرني دبلوماسي سويدي مؤخراً بأن "جميع البلدان تريد الترويج للقيم التي نؤمن بها. وأعتقد أن معظم الأجزاء المعرضة للنقد في جملة أقوى قوى أميركا الناعمة (وربما في القوى الناعمة لمعظم البلدان الغنية) هي المعايير المزدوجة وحالات التناقض وانعدام التجانس"[73]. فملاحظة النفاق سبب على وجه الخصوص تآكلاً في القوة القائمة على القيم المعلنة. فالذين يهزؤون بنا ويحتقروننا بسبب نفاقنا ليس من المحتمل أن يرغبوا في مساعدتنا على تحقيق أغراض سياستنا.

وحتى عند تطبيق القيم الأميركية بشرف ونزاهة، فإنها قد تثير اشمئزاز بعض الناس في الوقت نفسه الذي تجتذب فيه آخرين.

OBEIKAN.COM

فالنزعة الفردية والحريات جذابة لأناس كثيرين، ولكنها منفردة للبعض، ولاسيما للأصوليين المتشددين. وعلى سبيل المثال فإن الحركة النسوية الأميركية، والممارسات الجنسية المفتوحة، والخيارات الفردية هي أشياء عميقة التخريب في المجتمعات الأبوية. وقد نُقِلَ عن أحد الطيارين الذين أمضوا وقتاً في الولايات المتحدة لأنها قبل هجوم 11 أيلول/ سبتمبر قوله إنه لا يحب الولايات المتحدة لأنها "متراخية أكثر من اللازم، فأنا أستطيع الذهاب إلى آي مكان وهم لا يستطيعون إيقافها"[74]. وبعض الأصوليين الدينين يكرهون الولايات المتحدة بالضبط بسبب قيمنا الخاصة بالانفتاح، والتسامح، وتوفير الفرص. غير أن من الأشياء الأكثر نمطية هو رد فعل كاتب صيني لم يتفق مع نقد حكومته للولايات المتحدة عام 2003: "وسط هذا الضباب من العاطفة القومية، فإن ما يلفت النظر أكثر هو أن كثيراً من الصينيين قد استطاعوا الحفاظ على إيمانهم بالديمقراطية على الطراز الأميركي. فهم يتلهفون على تغيير أعمق في النظام السياسي لبلدهم نفسه"[75].

إن الإعجاب بالقيم الأميركية لا يعني أن الآخرين يريدون تقليد كل الطرق التي ينفذ بها الأميركيون هذه القيم. فرغم الإعجاب بالممارسة الأميركية لحرية الكلام، فإن بلداناً مثل ألمانيا وجنوب إفريقيا لها تاريخ يجعلها ترغب في منع جرائم الكراهية التي لا يمكن معاقبتها بموجب التعديل الدستوري الأميركي الأول. وبينما يعجب كثير من الأوربيين بإخلاص أميركا للحرية، فإنهم يفضلون في الداخل سياسات تخلط المبادئ الاقتصادية الليبرالية الحديثة والفردية باهتمام أكبر بالمجتمع وروح الجماعة. ففي عام 1991 كان اثنان من كل ثلاثة من التشيك، والبولنديين والبلغار يعتقدون أن الولايات المتحدة ذات تأثير طيب على بلدانهم، ولكن أقل من ربع سكان تلك البلدان كانوا يريدون استيراد

النموذج الاقتصادي الأميركي[76]. وإذا كان هناك من شيء أنتجته الحرب على العراق، فهو أنها زادت حدة إدراك التناقض في القيم بين الولايات المتحدة وأوروبا. فقد وجد استطلاع للرأي أجراه صندوق مارشال الألماني عام 2003 أن هناك اتفاقاً على جانبي الأطلسي بأن الأوروبيين والأميركيين لديهم قيم اجتماعية وثقافية مختلفة[77].

وكما هو موضح في الشكل 2-1، فإن نصف سكان البلدان التي استطلعت الآراء فيها كانوا يحبون الأفكار الأميركية عن الديمقراطية ولكن ثلثهم فقط كانوا يعتقدون من الجيد أن تنتشر الأفكار والعادات الأميركية في بلدانهم. ورغم أن ثلثي الأفارقة كانوا يحبون الأفكار الأميركية عن الديمقراطية فإن ثلث سكان البلدان المسلمة يحبونها[78]. وليس هذا جيداً بكليته. ففي ثمانينيات القرن العشرين، كان الرأي العام في أربعة بلدان أوروبية كبرى يعتبر العداء الأميركي جيداً في توفير الفرص الاقتصادية، وحكم القانون، والحرية الدينية، والتنوع الفنّي. ولكن أقل من نصف المجيبين على استطلاع في كل من بريطانيا، وألمانيا، وإسبانيا كانوا يشعرون بأن الولايات المتحدة نموذج ترغب فيه البلدان الأخرى[79]. إن كيفية سلوك أميركا في الداخل يمكن أن توسع صورتها وإدراك شرعيتها، وهذا بدوره قد يساعد على تقدم أغراض سياستها الخارجية. وليس معناه أن الآخرين يرغبون أو يحتاجون أن يصبحوا نُسَخاً أميركية.

أما الأداء الأميركي في تنفيذ قيمنا السياسية في الداخل فهو مخلوط متفاوت. كما هو ملاحظ آنفاً، فإن ترتيب الولايات المتحدة عند القمة أو في القرب منها وفي الإنفاق الصحي، والتعليم العالي، والكتب المنشورة، واستخدام الحاسوب والإنترنت، وقبول المهاجرين، والعمالة.

ولكن أميركا ليست عند القمة في طول حياة الإنسان المتوقعة، ولا التعليم الابتدائي، ولا الأمن الوظيفي، ولا الوصول إلى الرعاية الصحية، أو المساواة في الداخل كما أن ارتفاع مرتباتها في مجالات مثل حدوث جرائم القتل والنسبة المئوية لنزلاء السجون من سكانها لا ينتقص من جاذبيتها. ومن جهة أخرى، فليس هناك من دليل يذكر على الانحطاط الثقافي الذي يدعيه بعض المتشائمين، وكثيراً من المشاكل الداخلية الأميركية تشاركها فيها مجتمعات أخرى في فترة ما بعد الحداثة.

إن الجريمة، ومعدلات الطلاق، وحمل المراهقات سفاحاً هي اليوم أسوأ مما كانت عليه في خمسينيات القرن العشرين، ولكن هذه المقاييس الثلاثة كلها تحسنت كثيراً في التسعينيات، وقد كتب الرئيس السابق في جامعة هارفارد: "ليس هناك دليل يعوّل عليه بأن الطلبة الأميركيين يتلقون في مدارسهم أقلّ، أو أن الحلم الأميركي آخذ في التلاشي، أو أن البيئة صارت أكثر تلوثاً"[80]. فلقد تحسنت شروط الصحة، والبيئة والسلامة[81]. ولا يزال معظم الأطفال يعيشون مع والديهم الطبيعيين، وقد استقر معدل حالات الطلاق.

وقد تناقصت الثقة بالحكومة على مدى العقود الأخيرة من الزمن فأدى ذلك إلى قلق بعض المراقبين على الديمقراطية الأميركية. ولكن أدلة استطلاع الرأي ليست متجانسة في كل أنماط السلوك. وعلى سبيل المثال، فإن مصلحة الضرائب الداخلية لم تبلغ عن أي تزايد في الغش في تسديد الضرائب.[82]. وبموجب كثير من التقارير فقد أصبح الموظفون الحكوميون والشّرعيون أقل فساداً مما كانوا عليه قبل بضعة عقود[83] وزادت نسبة الاستمارات الإحصائية المعادة طوعياً بالبريد إلى 67 بالمئة في عام 2000، على عكس اتجاه هذه النسبة نحو الهبوط قبل ذلك بثلاثين عاماً، منذ عام 1970 [84] أما معدلات التصويت في

الانتخابات فقد انخفضت من 62 ٪ إلى 50 ٪ على مدى الأعوام الأربعين الماضية، ولكن الهبوط توقف في عام 2000. والمعدل الحالي ليس منخفضاً إلى الدرجة التي كان عليها في عشرينيات القرن العشرين وعلاوة على ذلك، تظهر استطلاعات الرأي أن غير المصوتين ليسوا أكثر من المصوتين سخطاً على الحكومة أو فقداناً للثقة بها[85].

رغم التنبؤات بأزمة في المؤسسات تم التعبير عنها في أعقاب شدة التنافس اللصيق في انتخابات الرئاسة عام 2000، فإن الإجراءات الدستورية لقيت قبولاً واسعاً فاستطاعت إدارة بوش القادمة أن تحكم بشكل فاعل. ولا يبدو أن هبوط الثقة بالحكومة قد قلل من قوة أميركا الناعمة بشكل كبير، حتى ولو أن معظم حكومات البلدان المتقدمة الأخرى تعيش ظاهرة مماثلة. ذلك أن كندا، وبريطانيا، وفرنسا، والسويد، واليابان قد شهدت فقداناً للثقة للمؤسسات يبدو أنه متجذر في تعاظم النزعة الفردية وتناقص الاحترام للسلطة، اللذين هما من مميزات مجتمعات ما بعد الحداثة[86].

وبالمثل، فبينما حدثت تغييرات في المشاركة في المنظمات الطوعية، فإن المشاركة الاجتماعية لم ينجم عنها تآكل في القوة الناعمة على ما يبدو. فمن جهة بقيت مستويات المشاركة والارتباط المطلقة عالية بصورة لافتة للنظر حسبما تدل عليه مؤشرات كثيرة. فثلاثة أرباع الأميركيين يشعرون بالارتباط مع وحداتهم الاجتماعية، ويتطوع ستون مليوناً منهم على أساس دولي منتظم[87]. ويظل الأميركيون منخرطين في منظمات طوعية باحتمالاتٍ أكثر نجاحاً من مواطني معظم البلدان الأخرى، باستثناء بضع أمم صغيرة في أوروبا الشمالية[88].

وحتى في أعقاب 11 أيلول/ سبتمبر، تظل أميركا بلداً للهجرة. فالناس يريدون المجيء إلى أميركا، وكثيراً ما ينجحون هنا وتتحسن أحوالهم. وعند حلول 1998، كان المهندسون الصينيون والهنود هم الذين يديرون ربعَ المشاريع التجارية العالية والتكنولوجيا في وادي السيليكون،(89) ومثل هذه القابلية للحركة الصاعدة إلى الأعلى تجعل أميركا مغناطيس جذب، حيث يستطيع الأجانب أن يتصوروا أنفسهم كأميركيين، وإن كثيراً من الأميركيين الناجحين "يشبهونهم". وعلاوة على ذلك، فإن ارتباطات المهاجرين في الشتات ببلدانهم الأصلية، كالهنود والصينيين، تساعد على نقل معلومات دقيقة وإيجابية عن الولايات المتحدة.

ومن المؤكد أن هبوطاً في نوعية المجتمع الأميركي، أو سياسات غير شعبية في الداخل قد يقللان من جاذبيتنا، وهذا قد يضرّ بقوتنا الناعمة. ولكن عندما تشاركنا بلدان أخرى في مشاكل مماثلة، فإن المقارنات تجعلنا أقل إثارة للاستياء وتقلل من الإضرار اللاحقة بقوتنا الناعمة. وكما أشار تقرير لمجلس السكان، فإن "اتجاهات مثل الأمومة خارج نطاق الزوجية، وتزايد معدلات الطلاق، وصغر حجم الأسرة، وتأنيث الفقر، ليست قاصرة على أميركا وحدها بل هي تحدث في جميع أنحاء العالم"(90). وبالمثل، فإن احترام السلطة والمؤسسات قد شهد نقصاً في جميع أنحاء العالم الغربي عام 1960، والمستويات الأميركية لا تختلف كثيرا عن المستويات في المجتمعات الغربية المتقدمة الأخرى بل إن العطاء الخيري وخدمة المجتمع في أميركا هما أعلى مستوى بصورة عامة. ثم إن المشاكل التي نتشارك فيها مع المجتمعات الأخرى ليس من المحتمل أن تنتقص من مصادر قوتنا الناعمة.

ذلك أن القوة الأميركية الناعمة تتآكل أكثر بسبب سياسات كعقوبة الإعدام، أو غياب السيطرة على تجارة الأسلحة النارية، حيث نحن

OBEIKAN.COM

المنحرفون في الرأي بين البلدان المتقدمة. فالتأييد الأميركي لعقوبة الإعدام مثلاً يعترض عليه ثلثا عامة الناس في كل من بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا[92]. وبالمثل، فإن الرد الأميركي في أعقاب 11 أيلول/ سبتمبر يخاطر بتقليص مصادر قوتنا الناعمة. كما أن مواقفنا من الهجرة قد تصلبت، أما الإجراءات الجديدة لمنح تأشيرة الدخول فقد ثبط عزيمة بعض الطلبة الأجانب. وهناك هبوط في تسامحنا تجاه المسلمين مما يضرّ بصورة الولايات المتحدة في بلدانٍ مسلمة مثل باكستان وإندونيسيا، وكذلك العالم العربي.

ورغم أن الرئيس بوش تصرف بتعقل عندما جاء برجال دين مسلمين للمشاركة في حفل الحداد في الكاتدرائية الوطنية ودعاهم إلى البيت الأبيض بعد 11 أيلول/ سبتمبر، فإن البنتاغون قد اختار فرانكلين غراهام، "وهو مبشر إنجيلي مسيحي كان قد وَصَمَ الإسلام بأنه دين مقيت وشرير" لإجراء قداس يوم الجمعة العظيم عام 2003 [93]. ووضع بعضُ الأميركيين الإسلامَ في الدور الذي كانت تلعبه الشيوعية والاتحاد السوفييتي ذات يوم. وقد وصف الرئيس السابق للمؤتمر المعمداني الجنوبي محمداً بأنه "لوطي تملكه الشيطان". ومثل هذه الآراء المتطرفة كثيراً ما تضخم في وخاصة عندما يبدو أنها تحظى بموافقة رسمية. والنتيجة، حسب تجربة الدكتور كلايف كالفر، من برنامج الإغاثة العالمية، هي أن مثل هذه التعليقات "تُستخدَمُ لاتهام الأميركيين جميعاً، والمسيحيين جميعاً. ومن الواضح أن ذلك يعرض حياة الناس ومعيشتهم في الخارج للمخاطر"[94]. فالدين سيف ذو حدّين كمصدر للقوى الناعمة الأميركية. أما كيفية قيامه بالقطع فتعتمد على يد الشخص الذي يشهر هذا السيف.

كما أن الجاذبية الأميركية يؤذيها إدراك كون الولايات المتحدة لم ترتفع إلى مستوى القيم التي تدعيها وتدعو إليها في رد فعلها على

الإرهاب. ولعله كان من الممكن التنبؤ بالأمر عندما أشارت منظمة العفو الدولية إلى اعتقالات خليج غوانتانامو بأنها "فضيحة لحقوق الإنسان". واتهمت منظمة مراقبة حقوق الإنسان أميركا بالنفاق الذي ينتقص من سياساتها ذاتها بحيث تضع نفسها في "موقع ضعيف عندما تلحّ على الآخرين بالامتثال لتلك المقاييس"(95) ولعل الضرر أكبر عندما يأتي النقد من مصادر محافظة موالية لأميركا". فقد عبرت **الفاينيشال تايمز** عن قلقها من أن "طابع الديمقراطية الأميركية نفسها قد تغير. فمعظم البلدان قد اختارت التوازن بين الحرية والأمن منذ 11 أيلول/ سبتمبر. ولكن التعديل في أميركا قد تجاوز مجرد الإصلاحات الطفيفة غير البارعة إلى نقطة قد تصبح عندها القيم الأساسية عرضة للأخطار". وفي تلك الأثناء، جادلت **الإيكونوميست** بأن الرئيس بوش "نظام محاكم مختفية في الظل خارج نطاق سيطرة الكونغرس الأميركي والنظام القضائي الأميركي وهو نظام لا يخضع إلاّ له وحده.... فقد لاحظ السيد بوش بحق أن المثل الأميركية كانت منار أمل للآخرين حول العالم، وهو بتعريضه تلك المثل للشبهة والخطر في هذه القضية لا يخيب ظن أصدقائه الأميركيين فحسب، بل إنه يثلم وحدة واحدة من أقوى أسلحة أميركا ضد الإرهاب"(96). ويبقى أن ينتظر المرء ليرى مدى حقيقة هذا الضرر وكم سيستمر في إيذاء قدرة أميركا على الحصول على النتائج التي تريدها من البلدان الأخرى. فهي في حدّها الأدنى يميل إلى جعل مواعظنا عن سياسات حقوق الإنسان تبدو لبعض الناس منافقة.

السياسة الخارجية
المادة والأسلوب

وتعتمد جاذبية الولايات المتحدة أيضاً اعتماداً كبيراً على القيم التي نعبر عنها من خلال مادة سياستنا الخارجية وأسلوبها. فكل البلدان تتابع مصلحتها الوطنية في السياسة الخارجية. ولكن هناك خيارات يجب القيام بها بشأن تحديدنا لمدى سعة مصلحتنا الوطنية أو ضيقها، وكذلك بشأن الطرق التي نتابعها بواسطتها. فبعد كل شيء إن القوة الناعمة تعني حشد تعاون الآخرين دون تهديدات أو دفع أموال. وبما أن القوة الناعمة تعتمد على عملية الجاذبية وليس على القوة أو الرشاوى، فإنها تعتمد جزئياً على كيفية قيامنا بوضع إطار لأهدافنا ذاتها. فالسياسات القائمة على تحديدات شاملة وبعيدة النظر في المصالحة الوطنية يسهل جعلها جذابة للآخرين أكثر من السياسة ذات المنظور الضيق الحسير القصير النظر.

وبالمثل فإن السياسات التي تعبر عن قيم مهمة يزيد احتمال جاذبيتها عندما تكون القيم مشتركة. وقد أشار المؤلف النرويجي غيير لندستاد إلى نجاح أميركا في أوروبا وفي النصف الثاني من القرن العشرين باعتبارها إمبراطورية جاءت بدعوى. "فعلى جانب القيم، كانت النزعة الاتحادية الفدرالية، والديمقراطية، والأسواق المفتوحة، تمثل لبّ القيم الأميركية. فهذا هو ما صدَّرته أميركا"[97]. وبسبب السياسات البعيدة النظر، كخطة مارشال، كان الأوروبيون سعداء بقبولها. ولكن القوة الناعمة عندها كانت تعتمد جزئياً على التداخل الكبير للثقافة والقيم بين الولايات المتحدة أوروبا.

OBEIKAN.COM

وفي القرن الحادي والعشرين هناك مصلحة للولايات المتحدة في الحفاظ على درجة النظام الدولي. فهي بحاجة إلى إقناع حكومات ومنظمات بموضوعات شتى مثل قضايا انتشار أسلحة الدمار الشامل، والإرهاب، والمخدرات، والتجارة، وغيرها. والولايات المتحدة، مثل بريطانيا في القرن التاسع عشر لها مصلحة في الحفاظ على الأسواق الدولية، والممتلكات العالمية المشتركة كالمحيطات، مفتوحة للجميع. والنظام الدولي هو مصلحة عامة إلى حد بعيد - فهو شيء يستطيع كل واحد أن يستهلكه دون تقليل كونه متاحاً للآخرين (98). وبالطبع فإن المصلحة العامة المحضة قليلة ونادرة. وفي بعض الأحيان فإن الأشياء التي تبدو صالحة للأميركيين قد لا تكون صالحة لكل شخص آخر. ولذلك فإن التشاور مهم.

إن بلداً كبيراً كالولايات المتحدة تحظى بكسب مضاعف عندما تروج للمصالحة العامة، فهي تكسب من المصالحة نفسها؛ ومن كونها من المجهزين الكبار تكسب شرعية وتزيد قوتها الناعمة، وهكذا فعندما أعلنت إدارة بوش أنها ستزيد مساعدات التنمية وتأخذ القيادة في مكافحة نقص المناعة/ ومرض الإيدز، كان معنى ذلك أن الولايات المتحدة لن تستفيد من الأسواق والاستقرار الذي قد ينجم عن ذلك فحسب، بل وكذلك من توسيع جاذبيتها أو مصادر قوتها الناعمة ثم إن التنمية الدولية هي أيضاً مصلحة عامة عالمية مهمة. ورغم ذلك فإن المساعدة الخارجية التي قدمتها أميركا كانت واحداً بالمئة من إجمالي ناتجها المحلي، ما يقرب من ثلث المستويات الأوروبية، كما أن إجراءاتها لحماية تجارتها، وخاصة في الزراعة والمنسوجات، تؤذي البلدان الفقيرة بأكثر من قيمة المساعدة المقدمة لها. وحسب مؤشر يحاول تقييم مدى جودة مساعدة البلدان الغنية للفقيرة بجعل المساعدة تشمل

OBEIKAN.COM

التجارة، والبيئة، والاستثمار، والهجرة، والحفاظ على السلام مع المساعدة الفعلية، فإن الولايات المتحدة تأتي في المرتبة العشرين من الـ 21 دولة (فهي سابقة لليابان فقط) [99] فعلى الرغم من جهود إدارة بوش، فإن الولايات المتحدة لا يزال أمامها شوط تقطعه كي تكسب قوة ناعمة في مجال التنمية. وتنتج السياسات الخارجية قوة ناعمة أيضاً تشجع قيماً يتشارك فيها كثيرون على نطاق واسع، كالديمقراطية وحقوق الإنسان. ولقد صارع الأميركيون كيفية دمج قيمنا مع مصالح أخرى منذ أوائل أيام الجمهورية، وكانت الآراء الرئيسة تحظى بدعم يتجاوز الخطوط الفارقة بين الحزبين. وحذّرَ الواقعيون مثل جون كوينسي آدمز بأن الولايات المتحدة "ليست ذاهبة إلى الخارج بحثاً عن وحوش لتدميرها"، وينبغي أن لا نورط أنفسنا "فيما يتجاوز قدرتنا على الخروج منه في جميع حروب المصالح والمؤامرات" [100] بينما يتبع آخرون تقليد وودرو ويلسون، مؤكدين على الديمقراطية وحقوق الإنسان باعتبارها أهداف السياسة الخارجية. كما سنرى في الفصل الخامس، فإن المحافظين الجدد اليوم هم في الواقع ويلسونيون يمينيون، وهم مهتمون بالقوة الناعمة التي يمكن توليدها عن طريق تشجيع الديمقراطية.

وأثناء حملة الانتخابات الرئيسة عام 2000، وعندما كان جورج ووكر بوش يكثر من التعبير عن الإنذارات التقليدية الواقعية بأن الولايات المتحدة ينبغي أن لا تتمدد في الخارج أكثر من اللازم، كان المحافظون الجدد يحرضونه على جعل حقوق الإنسان، والحرية الدينية والديمقراطية أولويات في السياسة الخارجية الأميركية وأن "لا يتبنى نظرة ضيقة لمصالح أميركا الوطنية" [101]. وفي أعقاب 11 أيلول/ سبتمبر تغيرت سياسة بوش الخارجية، وراح يتحدث عن الحاجة إلى استخدام القوة الأميركية لجلب الديمقراطية إلى الشرق الأوسط. كما

قال لورانس كابلن و ويليام كريستول: "عندما يأتي الأمر إلى التعامل مع أنظمة الطغيان مثل العراق وإيران ونعم، كوريا الشمالية، فإن على الولايات المتحدة أن تبحث عن تغييرها، وليس التعايش معها كهدف أولي لسياسة أميركا الخارجية. وهذا يُلْزِمُ أميركا بمهمة الحفاظ على نظام عالمي لائق وعلى تنفيذه"[102].

والمحافظون الجدد على حق في أن مثل هذا النظام العالمي هو مصلحة عامة عالمية، ولكنهم مخطئون في افتراضهم بأن رؤيتهم هذه سوف يشاركهم فيها جميع الذين يتأثرون بهذا النظام. أما إن كان نهج المحافظين الجدد يخلق قوة ناعمة بدلاً من أن يستهلكها فإن ذلك لا يعتمد على النتائج فحسب، بل أيضاً على مَنْ سوف يستشار، ومن الذي يقرر، إذْ إن المحافظين الجدد يبدون اهتماماً أقل من اهتمام الويلسونيين بالمشاورة عن طريق المؤسسات الدولية. ولكن بما أن عملة القوة الناعمة هي الجاذبة، فإن كثيراً ما يكون من الأسهل توليدها واستخدامها بنجاح في سياق متعدد الأطراف.

وفي السنوات الأخيرة شكت البلدان الأخرى بصورة متزايدة من تفرد الولايات المتحدة في سياستها الخارجية بشكل أحادي الجانب. ومثل هذه الخلافات هي بالطبع مسألة درجة. والبلدان الأحادية الطرف تماماً أو المتعددة الأطراف تماماً هي قلة قليلة لا تكاد تذكر. وكانت المخاوف الدولية من السياسات أحادية الجانب قد ظهرت قبل وقت طويل من رئاسة جورج ووكر بوش، ووصلت إلى الكونغرس والى السلطة التنفيذية كذلك. وقد أنكر الرئيس هذه الوصمة ولكن معظم المراقبين يصفون إدارته بأنها منقسمة بين العمليين البراغماتيين التقليديين وبين مدرسة أكثر تماسكا بعقلية عقائدية إيديولوجية وصفها كاتب العمود الصحفي تشارلي كروثامر مرحباً بها "أحادية الجانب الجديدة"[103].

وأصحاب النزعة "أحادية الجانب الجديدة" هذه يدافعون عن نهج حازم في ترويج القيم الأميركية وهم قلقون من تراخي الإدارة الدولية والإحجام عن تحويل لحظة أحادية القطب إلى عصر أحادي القطب[104]. فالنوايا الأميركية حسنة، والهيمنة الأميركية محببة للآخرين، وهذا يجب أن ينهي النقاش. وهم يرون أن تعدد الأطراف معناه "إغراق الإدارة الأميركية في عصيدة جماعية من اتخاذ القرارات - بحيث تحكم على نفسك بالاقتصار على الاستجابة للأحداث بردود الأفعال أو بتحويل الأمر إلى لجان متعددة اللغات ذات أسماء زاهية مكونة من حروف مختصرة"[105]. وهم ينكرون كون "الغطرسة" الأميركية مشكلة. بل يرون أن المشكلة هي "الحقيقة التي لا مفرّ منها - حقيقة القوة الأميركية بأشكالها الكثيرة"[106]. فالسياسة تكتسب شرعيتها من كونها نبعت أصلاً من دولة ديمقراطية، ومن المحصلة - أي إذا نتج عنها تقدم الحرية والديمقراطية. وإن اكتساب الشرعية اللاحقة بعد وقوع الواقعة أكثر من كافٍ للتعويض عن فقدان الشرعية من خلال التفرد بعمل أحادي الجانب.

وهناك أدلة متزايدة بأن سياسات الأحاديين الجدد ولهجتهم هي المسؤولة مباشرة عن انحطاط جاذبية أميركا في الخارج. فقد اكتشف مسح جرى قبل شهر من 11 أيلول/ سبتمبر عام 2001 أن الأوروبيين الغربيين كانوا يرون أن نهج إدارة بوش في السياسة الخارجية أحادي الجانب وبعد ذلك بعامين تقريباً أدت الحرب على العراق إلى ترسيخ هذا الفهم والإدراك. فقالت جموع من المجيبين على الاستطلاع إن السياسة الأميركية كان لها أثر سلبي على رأيهم في الولايات المتحدة[108]. في تحول مفاجئ وكبير على الحرب الباردة، فإن أغلبيات قوية في أوروبا الآن تعتبر التفرد الأميركي الأحادي الجانب تهديداً دولياً مهماً لأوروبا

في السنوات العشر القادمة. وهذه وجهة نظر يشترك في تأييدها حوالي تسعة أشخاص من كل عشرة في فرنسا وألمانيا، مدركين بأن هذا التفرد يمكن مقارنته بالتهديد الناجم عن تطوير كوريا الشمالية وإيران لأسلحة دمار شامل. وحتى في صفوف حلفاء أميركا في حرب العراق، البريطانيين والبولنديين، فإن ثلثي السكان يوافقون على أن التفرد الأميركي تهديد مهم[109].

إن الصراع بين أصحاب النزعتين الأحادي الجانب والمتعددة الأطراف في الكونغرس قد خلق سياسة خارجية مصابة بانفصام الشخصية حتى قبل الإدارة الحالية. فلقد تفاوضت الولايات المتحدة على مشاريع متعددة الأطراف مثل معاهدة قانون البحار، ومعاهدة الحظر الشامل على التجارب النووية، ومعاهدة الألغام الأرضية، والمحكمة الجنائية الدولية، وبروتوكول كيو تو حول تغيير المناخ ولكن الكونغرس عجز عن المصادقة عليها. وفي بعض الحالات، مثل بروتوكول كيوتو فقد وصفه الرئيس بوش ببساطة بأنه "ميت" دون أن يقدم أي بديل. ومهما تكن عيوب بروتوكول كيو تو، فإن الطريقة التي عالجت بها إدارة بوش سياسة التعامل معه أدت إلى ردود فعل أجنبية قوّضت قوة أميركا الناعمة. وفي الفترة التي سبقت الحرب على العراق، شعرت بلدان كثيرة أخرى أنه على الرغم من غلبة أصحاب النزعة العملية الذرائعية في السعي لاستصدار قرار مجلس الأمن رقم 1441 الهادف إلى إزالة أسلحة الدمار الشامل العراقية في خريف عام 2002 فإن الأحاديين الجدد كانوا قد قرروا شن الحرب فعلاً. فكانت نتيجة الدبلوماسية طريق مسدود تحولت إلى نزاع حول القوة الأميركية.

منذ أن قررت أثينا تحويل عصبة ديلوس إلى إمبراطورية في القرن الخامس قبل الميلاد، شعر حلفاؤها الأصغر منها بأنهم لأنهم

OBEIKAN.COM

يفرقون بين الشعور بتخلي أثينا عنهم، وبين الشعور بأنهم واقعون في مصيدة(*). إن تمكن حلفاء أميركا من التعبير عن مخاوفهم يساعد في تفسير سبب صمود تحالفهم مع أميركا مدة طويلة بعد انحسار تهديدات الحرب الباردة. فإن العضوية في شبكة من المؤسسات المتعددة الأطراف تتراوح من الأمم المتحدة إلى حلف شمال الأطلسي سميت صفقة دستورية[110]. وعند النظر إليها على ضوء كونها صفقة دستورية، فإن تعدد أطراف التفوق الأميركي البارز هو السرّ في طول حياته، لأنه اضعف الحوافز لإقامة تحالفات بديلة.

ولكن إعطاء الآخرين صوتاً قد عدّل الأهداف الأميركية أيضاً فجعلها أكثر قبولاً لدى الآخرين. فوزير الدفاع الأسبق روبرت مكنمارا، وهو أحد مهندسي الحرب الفيتنامية، استنتج في وقتٍ لاحق: "إننا إذا لم نستطع إقناع الأمم ذات القيم المضاهية لقيمنا بجدارةٍ قضيتنا، فإن علينا أن نعيد تفحص طريقة تفكيرنا. ولو أننا اتبعنا هذه القاعدة في فيتنام لما كنا هناك إذْ لم يؤيدنا أي واحد من حلفائنا"[111] إن تعدد الأطراف يساعد في إضفاء الشرعية على قوة أميركا، ولكن اهتمامنا بحلفائنا أيضاً يشكل سياساتنا، وقد شعر الأحاديون الجدد أن هذه التكاليف باهظة وذات وزن يرجح على وزن فوائد القوة الناعمة. فحذر نائب الرئيس، دك تشيني بقوله: "إن القوة، والتصميم، والعمل الحاسم تدحر الهجمات قبل أن تتمكن من الوصول إلى شواطئنا". وأكد تشيني أن من الخطر الاعتماد على التوافق الدولي أكثر من الإلزام، لأن هذا النهج "يصل إلى سياسة الامتناع تماماً عن عمل أي شيء".

(*) [كانت عصبة ديلوس تحالفاً بين الدويلات الإغريقية لمواجهة الفرس. وأدت خطوة أثينا لنقل خزينة ذلك التحالف من جزيرة ديلوس إلى أثينا إلى انفراط العقد ونشوب حرب طاحنة بين حلفاء أثينا وإسبارطة استمرت 27 عاماً وانتهت باستسلام أثينا وتحول القيادة إلى إسبارطة في عام 404 ق. م. المعرّب].

وعلى العموم، فإن الجمهور الأميركي قد أيد اشتراك أميركا في المؤسسات المتعددة الأطراف، وأعرب عن تقديره للشرعية التي أضفاها الاشتراك على سياسة أميركا الخارجية. وكما سنرى في الفصل الثالث، فإن تأييد الأميركيين للأمم المتحدة مرَّ بحالات مد وجزر، وصعود وهبوط على مدى الأعوام الخمسين الماضية؛ ولكن في أعقاب الحرب على العراق، كان ثلثا الأميركيين ما يزالون يعبرون عن رأي في صالح الأمم المتحدة[113]. وقبل الحرب، كانت استطلاعات الرأي توضح باستمرار مطرد أن تأييد الجمهور للعمل العسكري سيكون أقوى إذا تصرفت الولايات المتحدة بدعم من مجلس الأمن. وهناك أدلة إضافية على أن النزعة الأحادية تقلق غالبية الأميركيين: فبعد الحرب قال الثلثان (67 بالمئة): إن الميل إلى التفرد يشكل تهديداً مهماً للولايات المتحدة على امتداد السنوات العشر القادمة[114].

وبالطبع فإن الترتيبات المتعددة الأطراف ليست كلها جيدة وليس من الضروري أن تكون التعددية قيداً يشل الحركة. وعندما تقرر الولايات المتحدة بين الحين والآخر أن تنفرد بالتصرف سعياً وراء مصلحة عامة، فإن طبيعة القيمة المشتركة للغايات على نطاق واسع يمكن أحياناً أن تعوض عن الوسائل في إضفاء الشرعية على العمل والحفاظ على القوة الناعمة. ولكن جهود الأحاديين الجدد في السنوات الأخيرة لرفع التفرد من تكتيك عَرَضِيّ في مناسبات متفرقة إلى استراتيجية كاملة قائمة بذاتها قد أوقعت خسارة فادحة في القوة الأميركية الناعمة. وعلى سبيل المثال، ففي تموز/ يوليو عام 2003، عندما كانت أميركا تواجه مقاومة في العراق أكثر مما خططت له، فإن ذلك قد شغل نصف ألوية جيشها الثلاثة والثلاثين المقاتلة في عمل ميداني حقيقي. فراحت تسعى للحصول على قوات تقوم بعمل الشرطة

OBEIKAN.COM

والحفاظ على السلام هناك من الهند، وباكستان، وفرنسا، وبلدان أخرى، ولكن الهند، وفرنسا، وألمانيا، وغيرها ردّت بأنها لن ترسل قوات إلاّ تحت رعاية الأمم المتحدة[115].

وبغضّ النظر عن ماهية التكتيكات المستخدمة، فإن أسلوب استخدامها له أهميته أيضاً، والتواضع جانب مهم في أسلوب السياسة الخارجية. فأثناء الحملة السياسية في انتخابات الرئاسة عام 2000، قدم جورج ووكر بوش وصفاً جيداً للقوة الأميركية: "إن أمتنا تقف وحدها في العالم الآن من حيث القوة. وهذا هو السبب الذي يوجب علينا أن نكون متواضعين، ومع ذلك نعرض قوتنا بطريقة تشجيع الحرية.... فإذا كنا أمةً متغطرسة، فإنهم سينظرون إلينا على أننا كذلك، ولكن إذا كنا أمة متواضعة، فإنهم سيحترموننا"[116]. فكان في تصريحه هذا وعي متبصر، ومع ذلك فإن استطلاعات الرأي تظهر أن الأمم الأجنبية تعتبر إدارته متغطرسة. ففي غضون بضعة أشهر من خطابه هذا نظم حلفاء أميركا الأوربيون إلى البلدان الأخرى لأول مرة في رفض إعادة انتخابات الولايات المتحدة لعضوية لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. ولاحظ أحد المراقبين أن الرئيس بوش في بداية حكم إدارته "قد تدبر وسيلة لإثبات نظريته القائلة بأن الغطرسة تستثير غضباً على بلدان كان، قبل زمن طويل من مجيئه إلى الحكم، أكبر هدف بارز ومناسب في العالم"[117].

ولقد أظهرت عينات من الرأي العام في أحد عشر بلداً جمعتها هيئة الإذاعة البريطانية أن كثيرا من الناس يرون في الولايات المتحدة قوة عظمى متغطرسة تشكل خطراً على سلام العالم أعظم من خطر كورية الشمالية. فقد قال خمس وستون بالمائة من المجموع الشامل لتلك العينات - وأغلبية في كل بلد، **بما فيها** الولايات المتحدة - أن أميركا

متغطرسة[118]. وكتب فيليب ستفينز في **الفايننشال تايمز** البريطانية يقول: "إن هذا التحول في الرأي العالمي له علاقة كبيرة بالخط ولهجة الصوت. فقد حدث مرة بعد أخرى أن الدبلوماسية الهادئة لوزارة خارجية كولن باول المداولات الحذرة لجورج ووكر بوش نفسه انتقصت منها تصريحاتُ رامسفيلد والنائب دك تشيني العدوانية المائلة للقتال. فالخطب الصاخبة كثيراً ما تثبت أنها نقيض الخيارات الدبلوماسية الواقعية الذرائعية"[119].

وبعد الحرب على العراق، ذكر أروين ستلزر، الأميركي المحافظ المقيم بلندن أن "هناك تآكلاً في تأييد أميركا لدى الأصدقاء البريطانيين الذين لا يمكن لأي شطحة خيال أن تعتبرهم معادين لأميركا. إن عنجهية وزارة الدفاع الأميركية تجعلهم يميلون إلى تصديق الاتهامات بوجود قوة أميركية غير مقيدة، وأن من المحتمل نشرها بطريقة تهدد أمن حلفاء أميركا"[120]. ولاحظ أحد المراسلين عند اجتماع مع الأوربيين أن مساعد وزير الخارجية جون بولتون يبدو مستمتعاً بإهانة البلدان الأخرى دون ضرورة لذلك[121]. ومع ذلك فقد وجه جورج بوش الأب نصيحة بعد الحرب على العراق: "عليك أن تمد يدك إلى الشخص الآخر. وعليك أن تقنع الآخرين بأن الصداقة الطويلة الأمد ينبغي أن تتغلب على الشدة القصيرة الأمد". كما أن برنت سكاوكروفت، مستشاره لشؤون الأمن القومي قد حذره من أن "ائتلافات المستعدين المجمعين لغرض خاص قد تضفي علينا صورة الغطرسة. وإذا وصلت إلى حدّ أن يأمل الجميع أن تصاب عين أميركا بتورم أسود لأننا بغيضون مقيتون، فإننا سنصبح عندئذ عاجزين مسلوبي الفعالية تماماً"[122]. وقبل ذلك بقرن من الزمن كان تيودور روزفلت قد لاحظ أنك عندما تملك عصاً غليظة، فإن من الحكمة أن

OBEIKAN.COM

تتكلم بهدوء، وإلاّ فإنك تنقص من قوتك الناعمة. وباختصار فإنه بالرغم من أن حجم أميركا يخلق ضرورة قيامها بالقيادة ويجعلها هدفاً للسخط، وللإعجاب كذلك، فإن مادة سياستنا الخارجية وأسلوبها يمكن أن توجد فرقاً في صورة شرعيتنا، وبالتالي قوتنا الناعمة.

إن صورة الولايات المتحدة وجاذبيتها تتكون من أفكار ومواقف كثيرة مختلفة. فهي تعتمد في جزء منها على الثقافة، وفي جزء آخر على السياسات الداخلية والقيم، وفي جزء ثالث على مادة سياستنا الخارجية وتكتيكاتها وأسلوبها. وعلى مدى السنين، كانت هذه المصادر الثلاثة كثيراً ما تنتج قوة ناعمة - أي القدرة على حصول أميركا على النتائج التي تريدها لاجتذاب الآخرين بدلاً من إرغامهم بالقسر. وهذه المصادر الثلاثة مهمة كلها، ولكن مادة السياسة وأسلوبها كلاهما شديد التقلب وشديد التعرض لسيطرة الحكومة. وعلى أي حال، فقد رأينا أن القوة الناعمة ليست ساكنة. والمصادر تتغير مع تغير السياق. فقد تباينت في الماضي وسوف تتباين في المستقبل. أما الاتجاهات التاريخية من الحرب الباردة فقد لا يثبت أنها دلائل يعتمد عليها عند التنبؤ بمدّ القوة الأميركية الناعمة وجَزْرها في الحرب على الإرهاب. وفي الفصل الرابع سنناقش المدى الذي يمكن أن تصل إليه السياسات الدبلوماسية العامة في توسيع القوة الناعمة. ولكن ينبغي علينا أولاً أن نلقي نظرة على القوة الناعمة للآخرين، غير الولايات المتحدة.

OBEIKAN.COM

الشكل 4:2 - أبعاد الجاذبية الأميركية في أوروبا

مشروع كيف يرى العالم أمريكا عام ٢٠٠٢
المتوسط القياسي في عشرة أقطار أوربية

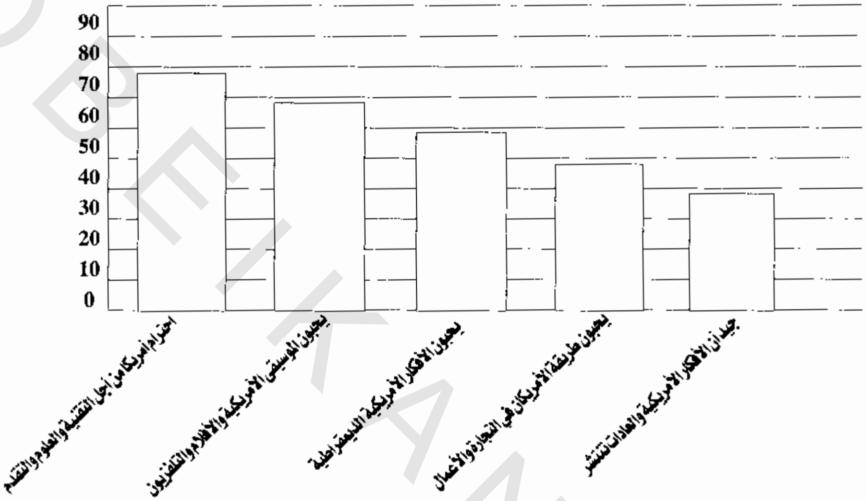

الشكل 2:5 - أبعاد الجاذبية الأميركية في جنوب شرق آسيا

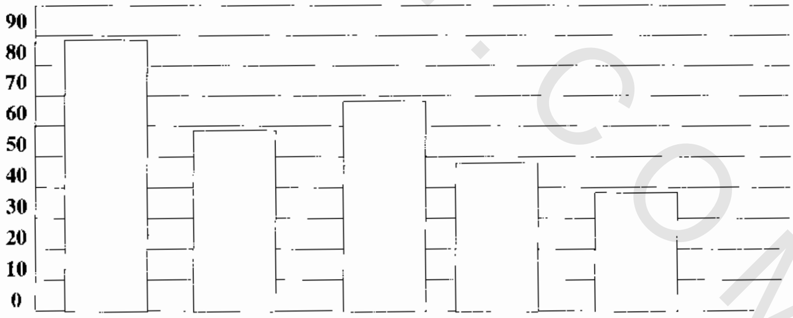

كيف يرى العالم أمريكا
متوسط الآراء في ستة بلدان آسيوية الأغلبية ليست مسلمة

الشكل 2:6 - أبعاد الجاذبية الأميركية في إفريقيا

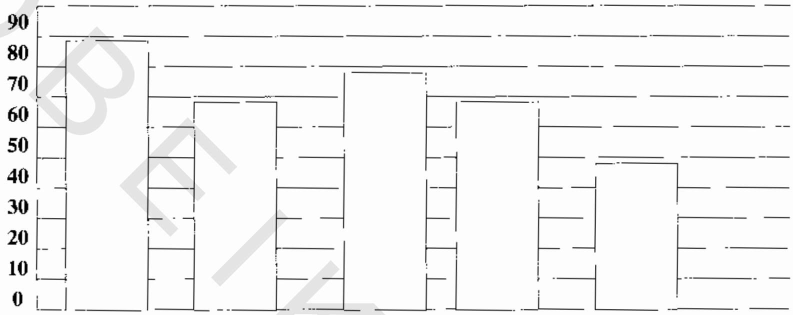

مشروع كيف يرى العالم أمريكا عام ٢٠٠٢
المتوسط القياسي في عشرة أقطار إفريقية

الشكل 2:7 - أبعاد الجاذبية الأميركية في الأمريكتين

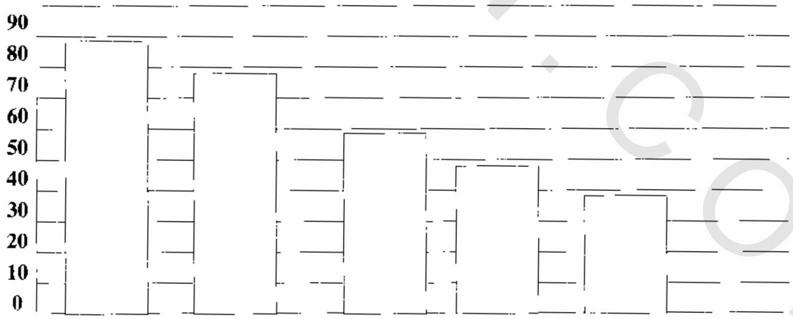

كيف يرى العالم أمريكا عام ٢٠٠٢
المتوسط القياسي في تسعة بلدان في شمال وجنوب أمريكا عدا الولايات المتحدة

OBEIKAN.COM